

اقرأ

فتحي رضوان

أدعي المواطنين

دار المعارف بمصر

أخي المواطن

فتحی رضوان

أنهى المواطن

اقرا ١٤٨

دار المعارف بمصر



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـ

تمهيد

تقول السيدة كويل ، وهى من علماء الآثار المصرية ، فى كتابها « التاريخ والفن المصرى » : لقد وقفنا على قدر عظيم من الحقائق المثيرة للأهتمام ، من الفحص الدقيق للمومياءات المصرية التى احتفظت ببعضها كلية الجراحين بلندن ، ومتاحف التشريح الأخرى . . فقد قيل كثيراً إن الجنس المصرى هو مزيج من دماء أجناس مختلفة ، وإنه تأثر بالغزاة القادمين من الشرق ومن الجنوب ومن الغرب . وقد يكون هذا حقاً ولكن الحقائق التشريحية أثبتت أن أقدم فلاح سكن وادى النيل ، هو من حيث بنائه وطول قامته ، أشبه ما يكون بفلاح اليوم ، فمن الراجح أن الشعب المصرى ، يمتاز بقدرة على هضم العناصر الغريبة .

ولست أدعى أننى أفهم شيئاً فى علم التشريح ، ولا فى علم الأجناس ، ومع ذلك لست أظن أن من يعتبرهم الناس علماء تشريح وأطباء ، يلقون القول جزافاً حينما يقولون إن الصفات التشريحية للمصرى الذى عاش فى مصر منذ أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة ، هو هو نفس الفلاح الذى يعيش اليوم . وإن

هذه الآلاف التي غيرت كل شيء ، حتى الحماد الذي لا ينطق ، عجزت عن أن تغيره .

وليس هذا وحده ، من حقائق العلم ، هو ما يساورنى ، وأنا أقدم هذه الخواطر ، التي تدور كلها حول « القومية المصرية » .

فأنا أذكر مثلاً أنه منذ أربعة آلاف سنة ، لاحظ المصريون ، أن الشعري اليمانية ، وهي نجم في السماء ، يشرق عند شروق الشمس في يوم من أيام الصيف ، وهدتهم الملاحظة إلى أن هذا اليوم هو يوم اكتمال فيضان النيل . وتكرر شروق هذا النجم في هذا اليوم من الصيف ، وتكررت مصاحبة شروقه ، لاكتمال الفيضان ، فاعتبروا هذا اليوم الذي يرد إليهم فيه الماء الذي يمد أرضهم بالخصب ، ويفيض عليهم بالخير ، ويزود وادهم بالحياة أول أيام السنة . وقسموا سنتهم مثل أية أمة أخرى إلى اثني عشر شهراً ، وكل شهر ثلاثين يوماً ، كما قسموا السنة إلى ثلاثة فصول :

فصل الفيضان ، وفصل الربيع ، وفصل الحصاد
فكان ذلك أول إدراك لمعنى الزمن ، وأول ضبط لرحفه المستمر ، الذي يطوى الأفراد والجماعات والشعوب . . .
وبعد ذلك بقرون طويلة ، التفت غير المصريين إلى السماء

واستوقف نظرهم القمر وانتظام ظهوره في السماء كل فترة من الزمن ، وحسبوا أيامهم على دوراته في السماء ، فكان حساباً خالياً من الضبط والاستقرار .

فما الذي أوحى إلى المصريين ، في هذه الحقبة الموعلة في القدم ، أن يقيموا حسابهم على هذه الظاهرة الدقيقة من ظواهر السماء ، ويتلك الظاهرة من ظواهر الطبيعة ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال ، أدعوك إلى التفكير في سؤال آخر هو : متى تمت وحدة المصريين القومية ؟ قد تقول إن هذه الوحدة كانت في عهد مينا وعلى يده ، وهذا غير صحيح ، فمصر عرفت الوحدة مراراً قبل أن يولد مينا ، وقد توحدت مديريات الوجه البحري قبل ذلك التاريخ بكثير ، واجتمعت حول عاصمتين ، دمن حور (دمنهور) في الغرب . وأوزير (أبو صير) في الشرق ؛ ثم اجتمعت كلها في العاصمة (بونت) . كما توحدت مديريات الوجه القبلي في حكومة العاصمة (ست) . ثم اندمجت المديريات في الشمال والجنوب ، المرة بعد المرة ، قبل أن تصبح شيئاً واحداً ، بصفة نهائية ، حتى يومنا هذا على يد مينا

فهل تعرف شعباً آخر ، عرف الوحدة الكاملة ، في هذا العصر الذاهب . إلى أبعد آماذ القدم . . إن أكثر الشعوب التي

تقود اليوم العالم لم تعرف الوحدة القومية إلا من بضعة قرون ،
وبعضها لم يمض على ميلاد قوميته إلا قرن من الزمان وقليل من
السنين . . . ومع ذلك قد خاضت في سبيل الوصول إلى هذه
القومية ، في بحر طام من الدماء ، وفوق جبال شائعة من
الحمائم والأشلاء ، وهي لا تزال تحنّ بين - الحين والحين -
إلى الفرقة والشحناء .

ولا تنس أنه حينما تمت وحدة الشعوب جميعاً ، والأجناس
كلها ، كانت هذه الوحدة سيادة ولاية بعينها ، على بقية
الولايات المكونة للوطن ، وإفناء غيرها فيها . إلا مصر ، فقد
كانت الوحدة تزاوجاً ، بين الشمال والجنوب ، فالملك - وهو
من الجنوب - وضع على رأسه تاجاً جمع ما بين تاجي الشمال
والجنوب معاً ، وجعل لقصر الملك بابين ، أحدهما باب الشمال
والثاني باب الجنوب ، وقد نسج الشعب على منوال الملك فأصبح
لكل دار بابان ، ولكل معبد بابان ، ولكل مبنى للدولة بابان ،
وكان اللونان الأحمر والأبيض ، وهما لونا الشمال والجنوب ، لونين
متقابلين في كل حفلة ، وفي كل مجمع رسمي ، وفي كل مكان .
ولقد أراد علماء التاريخ والآثار أن يعرفوا متى تبدأ الحضارة
المصرية ، ومتى يبدأ ، في مصر ، عهد ما قبل التاريخ .
وأوغلوا ، فإذا بهم أمام حضارة لا يسبقها هذا الطور ، من

أطوار الطفولة الإنسانية ، أفلم تعرف مصر ، عهد ما قبل التاريخ ؟

قال علماء . نعم ، إنها لم تعرف هذا الطور ، ولم تمر به ، ولا دليل على أنه مرّ بها .

وقد كان هذا فرضاً غير معقول ، ولكن العلماء الذين عاشوا بين الحفريات والآثار وقضوا حياتهم يستقرثون الأصداف والأحجار هم الذين كانوا يقولونه ويؤكدونه ، حتى جاء عالم آخر هو « جاك دى مرجان » فناقض ذلك الرأى واستبسل فى الدفاع عن رأيه ، حتى كتب له الفوز . . .

هذه الحقائق العلمية تواردت على خاطرى ، وأنا أقدم لك هذه الفصول التى تدور كلها حول القومية المصرية الحديثة ، وغاية هذه الحقائق جميعاً ، أن القومية بمعناها الصافى الرائق ، هى مرادف للمصرية . فمصر هى موطن أقدم القوميات ، وأخلدها ، وأصفها .

موطن أقدم القوميات ، لأن الشعوب الأخرى جميعاً ، عاشت عشرات القرون وعناصرها تتقاتل بعضها مع بعض ، دون أن تحس بأن رباطاً ما يربطها ، أو إطاراً عاماًً يحتويها ، فى حين كان المصريون خلال هذه القرون نفسها أمة متحدة ، يتشابه أبناء الشمال منهم بأبناء الجنوب ، فى العادات والعقائد والأزياء والتقاليد

ولون الطعام ، وشكل الزى . وينبسط سلطان الحاكم فيهم من البحر في الشمال ، حتى ما بعد الشلالات ، في أقصى الجنوب . ولقد بقى جاهلهم هكذا ، في كل عصر ، وفي ظل كل دين ، أو كل نظام حكم : يتغير الحاكم ، ويتغير الزمن ، ويتغير الفكر ، وتبقى مصر ، ويبقى المصريون . ولا أدل على خلود هذه الوحدة المتأسكة الصلدة ، وصفاتها ونقائشها من أن المصريين اليوم ، لا يختلف مسيحيوهم عن مسلميهم لا في السحنة ، ولا في اللهجة ولا في طريقة الحياة ، ولا في أسلوب المعيشة ، كما أن الأغلبية الساحقة من المسلمين ، يكادون يكونون على مذهب واحد من مذاهب الإسلام ، على الرغم من أن المذاهب نفسها ، لا تؤدي في مصر ، إلى إقامة فرقة بين مصرى ومصرى ، ومع ذلك إذا تجاوزت بنظرك حدود مصر في أى اتجاه ، وجدت الجماعات الصغيرة ، وقد تناهبتها أسباب الخلاف المذهبي والطائفي ، فقطعت الأواصر بينها ، حتى بات كل معسكر صغير منهم ، على ضغن وحقد ، يضمه للمعسكر الآخر ، ولست في صدد بيان أسباب هذه الميزة الكبرى التي امتازت بها مصر ، وازدان بها تاريخها الطويل . ولكن قد يكون من الخير أن نشير في عجل ، إلى أن عنصري هامين هما اللذان تعاونا على توفير هذه الميزة الكبرى . وأعنى بهما الصحراء والنيل . أما الصحراء ، فقد قامت

على حدود مصر من الشرق والغرب ، كالحارسين الساهرين
 للذين حميا مصر ، من الانمياح والنوبان في غيرها . فبقيت لها
 داخل هذين الحدين خصائصها الجنسية والقومية . أما النيل فقد
 كان أساس الحضارة في مصر ، وأساس الحضارة الزراعية
 بالذات . وهي حضارة أخص خصائصها ، وأظهر طابعها ،
 الاستقرار والثبات والالتصاق بالأرض . فضلا عن أن ارتباط
 كل المصريين من البحر إلى الشلالات بهذا المنبع الأصيل
 للحياة ، قد أعان على إقامة حكومة مركزية ، وأعان وجود
 الحكومة المركزية ، على توحيد ظروف الحياة في مختلف أنحاء
 الدولة .

وإذا كان في التاريخ كثير من المتناقضات ، فإن من
 أكبر المتناقضات أن يتعاون النيل ، وهو مصدر الخصب وعنوان
 الرخاء ، مع الصحراء ، وهي الجذب نفسه ، على تحقيق نتيجة
 واحدة ، هي خلق أقدم القوميات وأخْلدها .
 ولقد أثمرت الوحدة القومية المبكرة في مصر ، ثمرتها العظيمة
 فكانت هذه الحضارة الغريبة ، التي لا يزال الناس مأخوذين بالـ
 بتبكيها في كل جانب من جوانب الحياة .

وبوقوفها على حقائق في العلم والفن وأصول التشريع والحكم
 والفلسفة والعقائد ، لم نصل حتى اليوم إلى بعضها ، ووصلنا إلى

البعض الآخر منها متأخرين عنها بقرون .
وليست الغاية من تقرير هذا الواقع ، أن تفخر به ، وإنما
لنستمد منه إيماناً .

ذلك هو إيماننا بأن مصر لم توضع في هذه الرقعة من العالم ،
ولم تتوافر لها هذه الحصائص ، إلا لتكون قاعدة حضارية . وقد
كانت في الماضي هذه القاعدة ، فحققت للناس من أسباب
العلم بالحياة ، وقدمت لهم من وسائل التغلب على الطبيعة
وإخضاعها والانتفاع بها ، ما أعانهم في مستقبل أيامهم ، على
أن يسيروا في طريق التقدم والرفق . وقد كررت مصر خدماتها
للإنسانية ، فهي لم تقف عند حد ابتداء هذه الحضارة الفرعونية
القديمة التي عاشت أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة قبل
الميلاد ، بل إنها استمرت تنتج ألواناً جديدة من الحضارة ،
وتحتضن مدارس من الفكر والرأى على تعاقب الحقب . وقد
فعلت ذلك في بعض الأحيان وليس في يدها زمام أمرها كله .
ولكن روحها وعقلها كان دائماً ، أقوى من الحاكم الذي يحكمها .
إن جامعة الإسكندرية التي ورثت جامعة عين شمس ، كانت في
تاريخ العلم والحضارة ، منارة من منارات الفكر ، أخرجت رواد
الإنسانية ، فجاء ينتهل من مواردها العذبة ، الشرق والغرب ، فلما
ولدت الحضارة الإسلامية ، كانت مزيجاً من الحضارات ،

وتراثاً من فلسفات ، فلم تجد وعاء يضمها ، ولواء تسير في ظله إلا الأزهر .

فهل نبقى أمناء أوفياء لهذا السجل الباهر ، أم نخون ما خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا ، ونبايع غيرنا بالزعامة الروحية ؟
إننا إذا أجبنا بنعم ، كان الواجب أن نفهم مدى التبعات التي سنحملها على عواتقنا حينما نقول : « نعم » .

إننا لا نعى بالوفاء لهذا التراث القديم ، أن نفخر به ، وأن نقول للناس في مناسبة وغير مناسبة ، إننا أحفاد الذين صنعوا هذه الحضارات . فهذا الفخر ليس سوى طليعة العمل المنشود لأنه يدل على حبنا لهذا الماضي وإعزازنا له وحرصنا على الإبقاء عليه .

ولكن الأمر يقتضينا أكثر من الفخر . . .
يقتضينا أن نعرف هذا الماضي وأن ندرسه ، ثم ندرس الحاضر على ضوءه ، وأن نفهمه بعقولنا نحن ، لا بقول الأجانب الذين لا يعرفون شيئاً عنا .

ولكن هذا لا يكفي أيضاً ، فالمطلوب أكثر من ذلك بكثير .
المطلوب أن نهي أنفسنا ، لأن نستأنف السير في الطريق الذي رسمه الماضي ، وأن نعلي البناء فوق قاعدته ، وأن نكملة ، فنضيف إليه . . ولا سبيل إلى شيء من هذا ، إلا إذا كمل يقيننا

بأن بلادنا في المكان الذي وضعت فيه ، بين قارات الدنيا وشعوبها .
 قد خصصت لتبني الحضارات لا لتستهلكها ، ولتخلق لا لتعيش
 عالة على الخالقين . والصورة الأولى لهذا اليقين ، ألا نستسلم
 للحضارات الأخرى ، ولما تشيعه من مذاهب ، وما تروج له من
 مبادئ ، وما تدعو إليه من أساليب في العيش ، وطرائق للفكر .
 وليس معنى ذلك ، أن نرفض ما ينتجه ويخلقه الغير ، رفض
 العناد والمكابرة ، فالعناد والمكابرة من صفات الصغار غير
 المحجرين ، أو الجاهل غير العالمين . وإنما أعني أن نفكر في كل
 ما يعرض علينا ، وأن نتأمله تأمل الفاحص الناقد ، وأن نعرضه
 على ما عندنا ، وما كان عندنا ، وبهذا الأسلوب الناقد الفاحص
 ومع التروء ، بعلوم ماضينا ، وتراث أجدادنا نستطيع أن نكون
 أمة موجهة ، وحسبك أن تتحرك عجلة الابتكار في جهاز حياتنا
 الراكدة ، حتى تتوالى حركاتها ، ويتتابع دورانها فإذا أيدينا قد
 وصلت إلى المعين الذي كان بعيد الغور ، عميقاً لا نصل إليه ،
 بل لا نشعر به .

هذا هو جوهر الرسالة التي لا بد أن نتواصى بالإيمان بها ،
 وبالدعوة إليها . ولا جدال في أن الإيمان بها ، لا يغزو القلوب ،
 إلا إذا صدر من قلوب تؤمن هي أولاً ، ففاقد الشيء لا يعطيه .
 وأولى الناس بأن يؤمنوا ، ملء قلوبهم ، ليشتبعوا الإيمان :

قلوب الغير ، هم الكتاب والمفكرون ، هم القادرون على أن يترودوا من هذا الماضي الباهر ، ومن أنواره التي لم تخفت أبداً ، بل حجبها سحب كثيفة من الجهل ، والتخاذل ، والظلم والطغيان والخوف والريبة .

ولا عذر لأحد من هؤلاء ، بعد أن أشرق نور عهد جديد ، يريد أن يبنى مصر ، على أسس جديدة ، ويريد أن يفتح أبواب الخلق والإبداع على المصاريع لكل ذى موهبة أو كفاية . وهو لن يكون عهد حرية حقاً ، إلا إذا انتهزت العقول فرصته ، فحلقت وارتفعت عن مستوى الأرض التي شدت إليها أجسامنا زمناً طويلاً .

* * *

وفي سبيل إثارة هذه الروح المتحررة ، الطامعة في مزيد من الحرية ، الرغبة في بعث مصر ، وبعث أمجادها الروحية ، والنش عن ذخائرها الذهنية والعقلية ، كتبت الفصول التالية ، وقد آثرت أن تكون على صورة خطاب موجه إلى « أخى المواطن » ، وأن يستقل كل منها بفكرة ، توحى بها حقبة من حقب تاريخنا القومى الحديث ، أو شخصية من شخصيات هذا التاريخ ، ولقد زافنى أن يكون الحديث على هذه الصورة ، لأنه عليها يشبه أن يكون مناجاة ، فإن الخطوة الأولى ، فى كل عمل كبير ،

أن تتلاقى القلوب . . وقبل ميلاد كل حركة ، كان يتلاقى قلبان ،
ثم يجتمع على اجتماعهما قلوب ، يترايد عددها ، ويتسع نطاقها
اتساع اللوثر في الماء ، عند سقوط حجر فيه .

فإذا استطاعت هذه الأحاديث الصغيرة الموجزة ، أن تثير
في نفس « أخى المواطن » الرغبة أن يقرأ من جديد ، تاريخ
بلاده ، وأن يتأمل صورته ، وأن يتبين ما غمض من معانيه ،
فهذه الرسالة الصغيرة ، تكون قد حققت الغرض المنشود منها ،
والأمل المعقود عليها ، أما إذا اعتبرها قارئها ، رسالة في التاريخ
يحاسب كاتبها على قدر ما فيها من علم ، فإن التوفيق يكون قد
أخطأها .

وإني لأدعو الله بحق حبي لمصر ، وإعجابي بماضيها ،
وثقتي في حاضرها ، وأمل في مستقبلها ، أن يكون النجاح حظ
هذه السطور ، وأن يتلقاها « أخى المواطن » كما يتلقى رسالة
من صديق عزيز ، يحبه ، ويضممر له الخير ويعلمه .

فتحي رضوان

أخى المواطن :

يظن بعض الناس أن الأمم لا تثور ، إلا حينما يهبط سوء الحال بها إلى أحط الدرجات ، وقد أكد هذا الظن ، أننا نسمى عهد ما قبل الإسلام بعهد الجاهلية ، وأن ما نقرؤه عن الفترة السابقة للثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، وثورات المصريين في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، يرسم لنا صورة قاتمة ، شديدة السواد . صورة مظالم ترى على رأس شعب فقير ، تنتزع لقمة العيش من بين ضرسه ، لتعطى للحاكم المنخم ، يزيدها تخمته ، وتخلع عن جسمه الفضيل السقيم ، الحرقرة التي تستر عورته ، ليأخذها غنى قوى ، لا حاجة إليها ، بل لأنه لا يطيق أن يرى أجساماً تغطي ، أو عورات تستر . وصورة حكومة فاسدة ، لا تعرف من الحكم إلا أنه سبيل للكسب والثراء ، ومطية للإذلال والإرهاق . وفوضى ضاربة أطنابها ، لا تعرف معها حدود ، ولا حقوق ، ولا يستقر لها أمر أو حكم . وهذه الصورة صحيحة ، ولكنها ناقصة : صحيحة ، لأن الظلم

يورث الأمم الغضب ، ولأن الثورات لها أسبابها من ظلم الحاكم وفوضى الحكم ، وناقصة لأن الظلم وحده لا يدفع الناس إلى الثورة . فكثيراً ما يطول عهد الظلم بشعب يتعاقب عليه طغاة قساة ، لا يرحمون ، ولا يتحرجون ، يقتفون الآثام جهرة ، ويجترحون الأخطاء ، في استخفاف وهزاء ، والشعب ساكت صابر ، ثم لا يلبث هذا الشعب المستنم الخانع ، أن تتولاه نوبة من الغضب الجاثح ، لا ينفع في دفعها نار أوحديد ، ولا وعد أو وعيد . فما الذي يغير الشعوب من الخنوع إلى الثورة ؟

إن الله هو الذي يغير الشعوب ، فيخرج من صفوف أبنائها أناساً ، يحركون فيها عناصر القوة ، ويجمعون ما تفرق من غضبها ، ويوحدون ما توزع من أفرادها ، ولا يزالون بها ، يرسمون لها طريق النجاة ، ويحرضونها على سلوك سبيل الكفاح ، حتى تثوب إلى نفسها ، وتؤمن بحقها . ولا نظن أن هؤلاء الهداة والمرشدين ، ينجحون منذ الوهلة الأولى ، في سياسة إيقاظ الهمم الخاملة ، أو تحريك العزائم الخاملة ، بل إنهم يلقون من الناس عزوفاً وصداءً . لأن المظلومين يفقدون ثقتهم بأنفسهم ، حتى يهابوا كل مجازفة ، ويشفقوا من كل محاولة . ويتوهموا أن في الحركة البوار والهلاك ، وفي الجهاد ، الموت المحتوم ، أو الخسران المبين ، وهم في خوفهم ، يكرهون من يدعوهم إلى دفع الظلم ، أكثر مما

يكرهون من يركبهم بالظلم نفسه ، ولكن الهداة والمرشدين لا يئسسون ، وإذا اختطفهم الموت ، بقيت تعاليمهم ، ملوية في قلوب التلاميذ ، محرقة لهم الأتباع ، محروضة على القتال . وهكذا حتى يستيقظ في الأمة أملها ، وتستبين طريقها ، وتتحرك فيها عناصر قوتها ، وتنبأ لثورتها . فإذا نظرت إلى أمة من الأمم اجتمع لها ذلك الحظ ، قبيل ثورتها ، راعك أن ترى مظاهر الانحلال والضعف وآثار الظلم والذل ، تجاورها آيات القوة والفتوة ، ودلائل العزة والمجد . ترى الظلم ، وقد طاش صوابه ، يضرب يمينا ويساراً حتى تحسب أن الناس قد باتوا أعجز من أن يردوه ، وترى الأحرار ، يجهرون بالدعوة إلى المقاومة ، حتى تحسب أن الظلم قد أسلم آخر أنفاسه .

ولا أريدك أن تأخذ الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية ، ولا إحدى ثورات التاريخ القديم مثلاً ، إنما أريدك أن تأخذ ثورتنا الحديثة المثل على ما أقول . فنحن كلنا نعلم أن الثورة الفرنسية ، بذر بنورها الكتاب والمفكرون والأنسكلوبيديون ، أمثال روسو وفولتير ومونتسكيو وديدرو ، وأن إلى جانب سفه الملكية وطغيانها كان مئات وألوف من الفرنسيين يتحدثون عن الثورة وينتظرونها ، لا يحفلون بالسجن والاعتقال ولا يخافون ، كذلك كان الحال في مصر ، فقد فتحت المعتقلات وصدرت التشريعات التي تجعل

من الملك والأسرة المالكة قدماً من الأقداس ، ومع ذلك فقد كان حديث الثورة يلبور على الألسن ، وكأن كل إنسان كان يعلم أنها آتية لا ريب فيها ، ولكنه لا يدري موعداً .

فليس صحيحاً إذن أن الأمم قبل الثورات تبلغ غاية الضعف ، بل الصحيح أنها تضع في هذه الآونة قدمها على أول درج من درجات القوة ، فإذا جاءت الثورة ، صعدت باقي الدرجات تبعاً ، وكأن الثورة قد نفخت فيها روحاً من العزة ، وفتحت أمامها باباً مفضياً إلى المجد .

لنعد إلى مصر فنقول : إن أكثر الناس يتصورون أن مصر كانت - قبيل مجيء الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨ - قد استحالَت إلى بلد قفر ، هلك فيه الحرث والنسل ، وانطفأت نور مدارسه ومعاهده وأغلقت أبواب معامله ومصانعه . وهذا حق ، ولكنه أيضاً حق ناقص . فالمماليك أنلفوا الزراعة والصناعة ، ونشروا الجهل والخرافات ، ولكنهم أهلكوا أنفسهم قبل ذلك في صراعهم الصبياني الذي كانت الحرب فيه لعبتهم المحببة ، فاستيقظ الفلاح ، لأنه أحس أن سيادة هؤلاء الحكام زائفة ، لأنها لا تمثل نبلاً ، ولا شرفاً ، فأدرك أن الأمر سيؤول إليه ، إن آجلاً أو عاجلاً ، وأن هذا البلد بلده ، فلما جاء نابليون إلى مصر ، بأسلحته الجديدة ، فر المماليك من وجهه ، وتركوا الفلاح

وحده ، فاغتبط لأن العبء سقط على كتفيه دون غيره ، وأن الأيام أثبتت أنه أشرف من هؤلاء الذين كانوا يسومونه الخسف ويسلبونه القوت ويدلون عليه بأن صناعتهم الحرب ، وصناعته هو الرى والحرث . فارتفع الفلاح إلى المستوى العالى الذى وصلت إليه الحوادث .

ومن يقرأ أحداث ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨ التى نظمها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية ، وكيف أدارها زعماء ذلك الشعب الذين لم تكن لهم سابقة فى الجهاد ، ولا دراية بتنظيم الثورات ، يستقر فى يقينه أن ذلك لم يكن أبداً ثمرة تطور مفاجئ ، وأن الحوادث الكثيرة التى سبقته هى التى أدت إلى انبثاق هذه الروح الاستقلالية ، التى حاول نابليون أن يداورها ، فلم ينجح ، فحاول أن يواجهها فلم ينجح ، فنفض يده من هذه المحاولة الحاسرة على وجهيها ، وفر إلى بلاده ، تاركاً كليبر ، ليلقى فى مصر مصيره على يد سليمان الحلبي ، ومينو ، ليبلغ فى منافقة المصريين إلى حد إدعاء الإسلام ، والتزوج من مصرية مسلمة .

ولقد واصلت هذه الروح نموها ، حتى وضعت محمد على على رأس مصر ، كزعيم مختار . ثم كانت هذه النهضة التى يجب أن لا ننجل من تلاوة صحائفها : نهضة الصناعة والزراعة ،

ووثبة الجيش ، وانطلاقه في الشمال والجنوب ، مظفراً منتصراً .
 إذ لم يكن في وسع محمد علي ، أن يصنع ما صنع ، ولم يكن
 خبراؤه الأجانب الذين أرادوا أن يتخذوا من محمد علي أداة
 لضرب العالم الإسلامي بعضه ببعض ، قادرين على أن يصنعوا هذه
 الفتوح ، وإنما الذي صنع هذا كله الشعب الذي كان يثور
 على المماليك إبراهيم ومراد ، والذي ثار على الفرنسيين في المرة
 بعد المرة . وكانت مصر قد امتلأت ، واتسعت طاقتها ، وأصبح
 من المحتوم أن تؤدي دورها .

أخى المواطن :

إذا أردت أن تجعل من ابنك عاملاً صغيراً ، فأنت تلحقه بأحد «الأسطوانات» ليدربه في بضعة أيام أو بضعة أسابيع على العمل ، أما إذا أردت أن تجعل منه «أسطى» فأنت تبعث به إلى مدرسة صناعية ابتدائية يدرس فيها بضع سنوات لا تزيد على أربع ، أما إذا أردت أن تزوده بثقافة صناعية فلا بد أن يتلقى العلم والتدريس في مدرسة متوسطة سنوات أربعاً ، بعد أن يدرس دراسة ابتدائية ، سنوات أربعاً أخرى ، أما إذا أردت أن تخلق منه مهندساً فلا بد من دراسة طويلة ، يبلغ مداها أربعة عشر عاماً على الأقل ، أما إذا تمنيت أن يكون من أصلابك عالم في الهندسة ، فاللناسة تطول ، بطول العمر .

وقد يتبادر إلى ذهنك أنني سأحدثك حديثاً في الصناعة . ولكنى أردت بهذه المقدمة الطويلة ، أن أشرح لك أن على قدر خطر الدور الذى يلعبه الإنسان في الحياة ، يطول أو يقصر إعدادة وتدريبه وتعليمه وتلقينه .

فالدور الصغير لا يتقاضى من الإنسان إلا جهداً صغيراً ،
والعمل الكبير يتقاضى منه جهداً كبيراً . والأم كالأفراد ،
لا تستطيع أن تلعب دوراً هاماً ، بين الأمم والشعوب ، إلا إذا
طال إعدادها ، فمرت عليها تجارب وتعاقبت محن : إلا إذا
حاولت وأخفقت ، وحاولت ونجحت ، ثم تقلص النجاح من
بين يديها ، وأفلت كما يتسرب الماء من أصابع الكف المقبوضة .
ومصر ، بلادنا العزيزة ، أغرب الأمم ، لأنها تقفز من
الحضيض إلى القمة ، وتنحدر من القمة إلى الحضيض ، بلا
تدرج ، فتاريخها مفاخر ومآسٍ ، وكأن هذا التاريخ لا يعرف
إلا العدو والقفز ، أو الهزل والكسل .

ذلك لأن مصر كالحسناء ، إما أن تكون عفيفة مصونة
العرض ، قوية بما لها وجاهاها وأهلها ، فترد عنها طمع الطامعين ،
وإما أن تكون ضعيفة فقيرة ، فتصبح نهياً مستباحاً لكل ذى
شهوة .

ولذلك لا بد - لكى تنتقل من الحضيض الذى أوصلها إليه
أسلوب حكم العثمانيين الذى بدأ سنة ١٥١٧ ، وأسلوب حكم
المماليك فى القرن الثامن عشر - أن يطول إعدادها وتدريبها ، وأن
يستيقظ شعبها على دوى هائل من الأحداث ، وأن يجرب
ساعديه فى الضرب ، وساقيه فى الركول ، وأظفاره فى الوخز ،

حتى يتوافر له سيف يقطع ، ورمح يطعن .
ولقد بدأت هذه التجارب في الحملة الفرنسية ، التي جاءت
إلى مصر ، وعلى رأسها نابليون بوناپرت ، القائد الشاب الذي كان
يمثل عصرين في وقت واحد ، كان يمثل الثورة الفرنسية ذات
الشعار المثلث ، وكان يمثل نهاية الثورة الفرنسية ، وبداية عهد
من الحكم الفتي ، تلهبه أحلام الحرية ، وبقيدته ويكبله طموح
إلى المجد الإمبراطوري .

انظر فقط إلى المنشور الذي وجهه نابليون أو بوناپرتة — كما
كان يسميه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله — :
« من مدة عصور طويلة هذه الزمرة الممالك المجلوبين من
بلاد الأبازة والبحرا كسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي
لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل
شيء فإنه قد حكيم على انقضاء دولتهم »

ثم يقول بوناپرتة : « قولوا للممالك إن جميع الناس متساوون
عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل
والعلوم فقط وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب فماذا
يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم . . .
فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للممالك فليرونا الحجة التي
كتبها الله لهم » .

فالغاصب المعتدى ، يشعر أنه لا بد من أن يعلى هودعوى المعتدى عليهم . فهو يحدّثهم أن بلادهم أحسن بلاد العالم ، وأنه لا نظير لها ولا ند . وهو يقول لأهل الوطن المعتدين : إن أرض هذا الوطن ملكهم . وليس ثمة شئ أخلد من الكلام وأبقى منه . لقد دالت دول ، وثلت عروش ، وتقوضت صروح ، واختفت قلاع وحصون ، وبقي شعر الشعراء ، وحكم الحكماء ، وخطب الخطباء ، وبقي القرآن الكريم ، وبقيت الأناجيل والمزامير ، تظالعهما البشرية وتترود منها ، وتتأثر بها . ولذلك لم يكن معقولا ، أن تذهب كلمات بونا برته ، هذا الفاتح الغازي ، الذى رأى أن جيوشه وجحافلهم وجنوده وبنوده ، لا تجد فيه فى تحقيق الغرض الذى قصد إليه ، فاضطر اضطراراً أن يقول للشعب المصرى : إنه صاحب الأرض التى يقيم عليها ، وإن بلاده خير بلاد الدنيا قاطبة . ولقد كان هذا الكلام ، كالبذرة فى الأرض الخصبة ، ذلك لأن المصريين فهموه على معناه الصحيح ، فانتوا أن يذودوا عن حوضهم ؛ وفى هذا يقول عبد الرحمن الجبرتي :

« نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناوأة بذلك كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لرب بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً ، أو يجلسون فى

مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها .
 « إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقاتهم » .
 إلى أن قال :

« وسمحت نفوسهم بإتفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء . يملكه ، تهباً الشعب إذن للنضال ، بلا قيادة ، وبلا سلاح ، لأنهم كانوا يجمعونه ، على قلته » .
 ويقول الجبرتي أيضاً في هذا الصدد :

« وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبايت والعصى والمساوق » .

فعل الشعب ذلك فماذا فعل القادة والأغنياء ؟ ماذا فعل الأمراء والمماليك ؟ يقول الجبرتي : « وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم » .

كانت هذه تجربة من تجارب الشعب ، أهله لهذا الدور الذي لا بد أن تلعبه مصر ، في العالم ، والذي لم تكن لترتفع إليه ، وتصلح له ، إلا في وقت طويل ، لأن مصر لا تصلح لأن تكون بين الأمم صبي صانع ، ولا « أسطى » في ورشة ، بل لا بد

أن تكون أستاذاً كبيراً موجهاً ، أو لا تكون شيئاً مطلقاً .
وقد اعترت هذه التجربة عثرتها ، بعد هذا الكفاح الفاشل
في بداية الحملة الفرنسية ، فإن زعماء الشعب الذين ملأوا الفراغ
الذى كان المماليك يشغلونه ، ابتدأوا يحسون بتبعاتهم ، ويدركون
واجباتهم . ويروى الخبرنى :

« طلب صارى عسكرى بونايرته المشايخ فلما استقروا عنده
نهض بونايرته من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة
ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى فوضع
منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض
وامتعص وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه فقال الترجمان
يا مشايخ أنتم صرتم أحبباً لصارى عسكر أى (القائد العام)
وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فإن تميزتم بذلك
عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم فقالوا له
لكن قلرنا يضيع عند الله وعند إخواننا » .

فالقائد الفاتح كان يود أن يستدرج زعماء الشعب ،
إلى ما يريد ، بالملاطفة ، والتودد ، وزعماء الشعب كانوا
يقبلون المجاملة ولكن لم يكونوا مستعدين أن يداهنوا إلى أبعد من
ذلك ، ولو أدى الأمر إلى مجابهة الحاكم الغازى ، وإغضابه .
وكان ذلك أول السطر في الصفحة الأولى من تاريخ مصر الحديثة

خى :

كانت الزعامة الشعبية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، زعامة وليدة ، وكانت تجربتها صغيرة ، ولكنها كانت موجودة ، على أية حال ، وقد دفعت ثمن الزعامة الحقيقية ، وارتفعت إلى مستواها الجدير بها ، وقد كانت حداتها ، وقلة تجربتها ، سبباً فى أن محمد على سهل عليه خداعها أول الأمر ، ثم التخلف منها نهائياً آخر الأمر . ولكن لم يكن ذلك شعوراً كله ، فإن محمد على الذى صنى الزعامة الشعبية وقضى عليها ، صنى فى الوقت نفسه الممالك ، فلم تعد هناك إلا قوتان : قوة الحكم الأجنبى ممثلة فيه ، وفى عائلته من بعده ، وقوة الشعب . وكان الشعب يقاوم حيناً ويستسلم حيناً ، ولكنهبقى موجوداً يعلن عن نفسه . ويحمل الحاكم على أن يعترف به . وقد أراد محمد على أن ينشئ جيشاً من أولاد الممالك وأن يستغنى بهم عن أولاد مصر فلم يفلح ، وأصبح الجيش مصرياً ، وأصبحت البحرية مصرية ، وإن بقيت قيادتها أجنبية ، ولم ينقض على وفاة محمد على أكثر من عشر سنوات ، حتى أحس الذين جاءوا بعده أنه لا بد من أن يفتح الطريق ، فى الجيش ، لأبناء الشعب ، فارتقى فى درجات هذا الطريق ، عدد من أبناء الفلاحين ، كان منهم أحمد عرابى .

أخى المواطن :

سأحدثك عن أحمد عرابي ، ولكنى أرجوك ألا تتوقع منى أن أجلي لك جوانب الثورة العرابية ، أو أن أتحرى معك بواعثها ودواعيها ، فهذا كلام سمعته مراراً ، وقرأته كثيراً ، وهو في متناولك ، كلما شئت منه مزيداً . إنما أحاول أن أفضى لك بخواطر متناثرة ، توحى بها هذه الثورة ، وهى خواطر تبرز النواحي الروحية ، للثورة العرابية ، وتؤكد صلة تلك الثورة بثورة آبائنا في عهد المماليك وقبيل تولى محمد على الملك .

قلت لك إن محمد على حاول أن ينشئ جيشاً من أبناء المماليك ، والضباط الأرناؤود الذين جاءوا معه . وقلت لك إن هذه المحاولة لم تفلح ، فلم يكن المماليك قوم حرب و قتال ، وكان النظام ثقيلاً على أنفسهم . فاضطر محمد على اضطراراً أن ينشئ جيشاً من أبناء الفلاحين . فعل ذلك وهو كاره . كره أن يكون الجيش من أبناء مصر ، لأنه لم يكن يتصور أنهم يليقون بهذا الشرف ، أو أنهم يقوون على احتمال تبعاته ومتاعبه . ولأنه

لم يكن يود أن ينشئ من مصر دولة لأبنائها ، بل كان أقصى ما يتمناه أن ينشئ في مصر دولة له ولأبنائه . وهكذا أصبح في مصر جيش مصري ، فكتب لنفسه صفحة تزاوجت فيها المفاخر أكثر مما تزاوجت في صفحة أى جيش آخر . فلقد حارب المصريون في كل جو وفي كل ظرف . حاربوا في الصحاري ، وفي الجليل ، وعلى ضفاف الأنهار ، وعلى شواطئ البحار ، وفي سفوح الجبال وفوق قممها . حاربوا في العالم القديم والحديث في أوربا وآسيا ، وأفريقيا وأمريكا : حاربوا عند خط الاستواء ، وفي الحبشة . وفي المكسيك حيث تتلظى الحرارة . وحاربوا في صحراء السودان وفي صحراء الحجاز ونجد ، كما قاتلوا في القرم ، وفي نزيب ، حيث تتجمد الأطراف ويأكل البرد لحم البشر . وقاتلوا تحت أسوار عكا بالشام ، وفي مياه نفارين باليونان .

ولكن لم يكن دور الفلاح ، ابن مصر ، في هذا الجيش ليزيد عن دور الجندي التابع ، فقد خاف محمد علي أن يصل المصري إلى مركز القيادة ، أو ما يدانيها ، لأنه لو اقترب من تلك المكانة ، فقد كملت شخصيته واستيقظت في نفسه رواسب القيادة والزعامة التي ورثها عن أجداده وأجداد الإنسانية وانتفض عملاقاً لا ترد له كلمة ، وأحاطته صنوف المجد ،

بها لاتها الكبرى ، وشرق الجيش المصرى ، وغرب ، وغزى وفتح ،
وأعان حيث تغز المعونة ، وأبلى حيث فر المقاتلون المجترفون ،
ولكن التاريخ لم يجد على الفلاح الذى تكون منه هذا الجيش ،
وتغذى منه لحمه ودمه ، بحرف واحد ، وإنى لأسائل المؤرخين
المحققين ، منصفهم وظالمهم ، أن يذكروا لنا اسم مصرى واحد فى
هذه المعارك الكبرى التى خاضها المصريون وحدهم .

وقد بقى الحال على هذا المنوال ، فى عهد إبراهيم وعباس ،
ثم فى عهد سعيد ، الذى لى من أسرته عنتاً ، وكانت تركيا ، تضيق
عليه الخناق ، فلم يجد من يحميه ، إلا هذا الفلاح المصرى
المهجور المفترى عليه . والإنصاف يقتضى أن أعلن أن سعيد أفعل
للفلاح المصرى أكثر مما فعل كل ولاية مصر ، بل أكثر مما فعل
فيما بعد بعض رؤساء حكوماتها من الفلاحين . لقد فتح باب الترقى
لأبناء الفلاحين فى الجيش ، وسوى فى الخدمة العسكرية بين
أبناء الفقراء وبين أبناء العمد والمشايخ الذين كانوا يدلون على
الناس بأنهم أكبر من أن يؤدوا فريضة الخدمة العسكرية ، أو قل
أصغر من أن ينالوا شرفها .

ولقد تحقق كل ما خمنه ، وتوحيش منه محمد على ، فما كاد
باب الترقى للفلاحين يفتح ، حتى دخل منه إلى المجد : أحمد
جبرائى ، ومعه جماعة من أبناء الفلاحين أمثال : عبد العال حلمى ،

وعلى فهمى ، والروبى ، ومحمود فهمى .

فوصول أحمد عرابى إلى رتبة القائم مقام فى الجيش ، كان فى الواقع وصولاً للشعب المصرى إلى هذه الرتبة ، فقد كان الشعب المصرى كله ، فى مجال الحوادث الدولية ، وفى مجال السياسة الداخلية ، « نفرا » يتحرك ولا يحرك ، يسمع ويرى ، يحس ويتألم ، ولكن لا يتكلم ، ولكنه مع مر الأيام أخذ يفرض نفسه على الحوادث ، وعلى الناس ، وعلى الحكام ، فارتقى حتى كان فى رتبة الباشجاويش فى عهد سعيد ، ومن ثم بدا يصعد سلم الترقى فى كادر الضباط .

وصل عرابى إلى رتبة القائم مقام ، وكأن الشعب المصرى كله قد وصل إلى هذه الرتبة ، فقد أخذ الاستعمار والصهيونية العالمية تصفع الخديو إسماعيل صفعات ، لا تأديباً له ، فقد كان الخديو إسماعيل ، أحسن ما جاد به الزمن ، على هذه العصبية المتأمرة على مصر وعلى العرب وعلى المسلمين . وكان لا بد لإسماعيل من سند ، فكان السند هو الشعب .

فعرابى فى الجيش كان فى الواقع رمزاً للفلاح فى الدولة . وسواء أكان عرابى قد اتجه إلى تزعم الثورة وقيادتها ، أم لم يتجه ، فقد كان هو وإخوانه ، عنوان طبقة من طبقات الأمة المصرية . وقد كان من المحتم أن يحس عرابى وإخوانه ، أنهم غرباء فى الجيش

وأنهم وصلوا إلى هذه المكانة على الرغم من إرادة أصحاب الأمر والنهى. ولما توالى الإهانات عليهم تحرك فيهم شعور بحق الجماعة التى يمثلونها. وفى هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز الذين شهدوا حوادث الثورة العرابية من مقدماتها :

« وكان ممن تزعموا التذمر ضد حركة التفريق الطبقي، فى الجيش، أحمد بك عرابي، الذى كان قد بلغ مرتبة القائم مقام، وهى مرتبة لم يكن من المألوف أن يتولاها فلاح. مما أكسبه نفوذاً وتأثيراً غير عاديين على مواطنيه من الناطقين بالعربية، وكان الدفاع عن حقوق الفلاح هو الميزة التى تفرد بها عرابي بين دعاة الإصلاح فى أيامه، إذ كانت حركة الأزهر حركة عالمية دون تمييز بين العناصر... أما حركة عرابي فكانت حركة عنصرية من أصلها، ومن ثم فهى أكثر اضطباعاً بالصبغة القومية.

« والواقع أن عرابي كان يمثل الفلاح المصرى أتم تمثيل، وكان هذا النوع من الرجال موضع إهمال تام لدى الباشوات من أتراك وشراكسة.

« إذ ظلوا أجيالاً يسترقونه، ويسخرونه، فلم يكونوا ينظرون إليه كأكثر من أداة يستعملونها لمصلحتهم. وكان رياض (يقصد رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك العهد) من البداية حتى النهاية يزدري عرابي. بل إن دعاة الإصلاح فى الأزهر لم

يكونوا يقيمون له كبير وزن كقوة سياسية؛ أما أبناء طبقته من
 الفلاحين ، فقد رأوا فيه واحداً منهم تضخمت فيه صفاتهم . وحدير
 بنا أن نتذكر أن التاريخ المصرى ظل زهاء ثلاثمائة سنة على الأقل
 لم يشهد فلاحاً قحاً يرقى إلى مركز ذى أهمية سياسية تذكر ، أو
 يتألق كمصلح ، أو يجسر على أن يهمس بأية كلمة عن احتمال
 القيام بثورة . « فالثورة العربية ليست ثورة دستورية كما كنا
 نحاول أحياناً أن نسميها ، أو ثورة ضباط يطلبون إنصافهم فى
 الترقيات والعلاوات فى درجة الأعمال التى توكل إليهم ، وليست
 هى حركة تحرير وطنى ، ولكنها شىء أعمق من ذلك ، هى
 حركة أهل الوطن الأصلاء ، هى حركة المصرى الذى عاش
 حياته أشبه شىء بالحيوان ، وأحياناً أقل درجة منه . هى حركة
 الفلاح الذى كان أقرب ما يكون إلى المحراث والساقية والبشادوف
 والنورج يعمل كثيراً أو قليلاً ، يعمل بأمانة ، أو فى جو ملؤه
 الخوف والخديعة والرغبة فى الانتقام ، ولكنه على أية حال لا يعبر
 عن نفسه ، ولذلك كان فنه شكوى ، سواء أكان هذا الفن غناء
 أم موسيقى ، أم أدباً يجرى على الألسن كشعر أو موال أو زجل .
 وقد كان الحكام الذين وضعوا الفلاح فى هذا الموضع ،
 غاية فى الذكاء وآية فى بعد النظر . لأنه على هوان مظهره ، وسوء
 شكله ، وضعف صحته وقلة حيلته ، مخزن هائل مليء بالمتفجرات

والمدمرات . حسبته عود ثقاب واحد لينفجر ، وهو حين ينفجر يصل إلى آخر الشوط في خطوة . ولا أعنى هنا بالانفجار الثورة ، وإنما العمل ، سواء أكان عملاً حربيًا أم سلميًا ، فالمصري الذي كان يفر من الجيش هو المصري الذي هزم جيش تركيا ، أقوى جيش في أوربا ، في ذلك الحين . والمصري الذي لا يطيق أن يسير بمركب في البحر بضع ساعات ، هو المصري الذي صنع أسطولاً ، جعل الإنجليز والفرنسيين يجتمعون عليه بأساطيلهم ، في تقارين ، لأن أسطولاً واحداً لا يكفي لمنازلته . وإذا أردت دليلاً على أن المصري يشب من الحضيض إلى القمة دفعة واحدة ، فانظر ماذا فعلت فيه حرب الحبشة التي أعلنها الخديو إسماعيل في أخريات أيام حكمه . فلقد احتمل المصري الكثير ، احتمل السخرة . واحتمل نظام الإلزام الذي كان يسرق من الفلاح ماشيته ورزقه ومحاصيله . ولكنه حينما فككت قيوده ، لم يعد يطيق عشر معشار ما كان يألفه ، ويقول بلنت في هذا أيضاً :

«وكان تدخل الجيش في شتاء ١٨٨٠ - ١٨٨١ كقوة سياسية في مصر ، من أهم الأمور . . ويرجع ظهور الجيش كعامل من عوامل التلزم ، إلى الحملة المصرية على الحبشة ، إذ أنها هدمت مكانة الخديو . . كما أن المتاعب المالية أدت إلى تخفيض

مرتبات الجنود وعدم انتظام دفعها . . ولم يعد الجنود الذين قدر لهم أن يعودوا من الحملة ، يحترمون قادتهم بعد أن ظهر عدم جدارتهم . . كما قرب التلمع من القادة بين الجنود وبين ضباط الصف ، لا سيما أن المناصب الرفيعة كانت وفقاً على الشراكسة الذين لا يجيدون غير اللغة التركية ، في حين أن مراكز الجنود وصغار الضباط كانت مخصصة لأبناء الفلاحين ممن لا يتكلمون سوى العربية . . وزاد من الشعور بالفوارق أن تأخر المرتبات كان مقصوداً على هؤلاء الأخيرين دون الشراكسة .

فواعجباً . . . المصريون لا يطبقون تأخر صرف مرتباتهم . . وقد احتملوا في الماضي أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة . . بل إن عرابي اصطدم بوزير الحربية أول ما اصطدم ، لأن عرابي رفض أن يعمل جنود لوائه في حفر ترعة التوفيقية . . .

ألم أقل إن حركة عرابي ، كانت حركة الجيش المصري ، وإنها لم تكن ثورة ولم تكن انقلاباً ، ولم تكن نهضة . . إنما كانت حركة من حركات الطبيعة كانتقال الشمس في أبراج السماء .. حركة ارتفاع بطيئة ، ولكنها مستمرة ، خفية ، ولكنها فعالة ومؤثرة . . .

أُخى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة أن تتوالى مقدمات الاحتلال البريطاني
وعلى مسرح السياسة العالمية ، جامبتا رئيس وزراء فرنسا ،
ودزرائلى رئيس وزراء إنجلترا ، وروتشيلد صاحب الملايين التى
تكسبه نفوذاً لا حد له ، على الدول ورؤساء الدول ، فجامبتا
ودزرائلى وروتشيلد صهيونيون بالمعنى الدقيق لكلمة صهيونى ،
فليسوا هم مجرد إسرائيليين ، يدينون بالدين اليهودي بل هم
إسرائيليون ، يتوقون إلى أن يعيدوا بناء هيكل سليمان ، وأن
يستعيدوا مجد إسرائيل ، على حساب سلام الناس وأمنهم . وهم
على عادة الصهيونيين ، يحضرون للمسائل تحضيراً أكبر صفاته
الأناة والصبر ، والتربص للفرص ، حتى إذا لاحت انقضوا عليها
انقضاض الباشق ، من على ، فينشب فيها أظفاره فلا يدعها ،
حتى يلتهمها .

فلزرائلى حينما اضطر الحديو إسماعيل لسفحه وسوء سياسته
المالية ، إلى بيع ١٧٦,٦٠٢ من أسهم قناة السويس التى كانت

تملكها مصر ، أسرع إلى تدبير المال ، لإتفاذ هذه الصفقة ، ولم يجد من يبادر إلى مده بالمال المطلوب إلا روتشيلد ، وأنت لا شك تحس حينما تقرأ قصة شراء هذه الأسهم الباقية في ملك مصر حتى سنة ١٨٧٥ ، أنها لم تكن إلا مؤامرة يدبرها دزرائيلي مع روتشيلد ، وهدفهما أن يحتلا مصر . فقد تم شراء الصفقة ودفع الثمن إلى الخديو إسماعيل ، في غيبة البرلمان البريطاني ، وبغير علمه ، أو موافقته . وقد أحيطت الصفقة في كل مراحلها بالكتمان والسرية ، لأنها لم تكن صفقة مالية ، بقدر ما كانت مؤامرة سياسية .

وعلى الرغم من أن حديثنا يدور حول الثورة العرابية ، إلا أننا لا نستطيع أن نمر على صفقة شراء أسهم الحكومة المصرية في قناة السويس ، مرور العابرين ، لأن النظر في هذه الصفقة يؤكد لك أن الاحتلال البريطاني ، كان عملاً صهيونياً صرفاً ، تحالفت فيه الصهيونية مع الاستعمار ، إن كانت الصهيونية والاستعمار شيئين منفصلين .

وإليك إجمال القصة . . علم مالي فرنسي اسمه إدوارد درفيو ، إن الخديو إسماعيل في ارتباك مالي شديد ، فأرسل إلى أخ له في الإسكندرية يدعى أندريه ليعرض على الخديو إسماعيل أن يبيع أسهم مصر في القناة مقابل ٩٢ مليوناً من الفرنكات ، ولكن

ضخامة هذا المبلغ كانت تقتضى تعاون عدد من المالىين الفرنسيين الكبار ليجمعوه ، وتلكأ المالىون الفرنسيون ، وتلكأت السياسة الفرنسية كعادتها بصفة عامة وفى المسائل المصرية بصفة خاصة . وفى هذه الأثناء وصل نبأ هذه الصفقة إلى الإنجليز ، فكلف دزرائيلى الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا فى ذلك الحين ، بأن يعرض على الحديد بيع الصفقة ، ووافق الحديد فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ على أن يبيعها بمائة مليون فرنك فرنسى أى بما يساوى أربعة ملايين جنيه استرلىنى ، وأبرق قنصل بريطانيا بهذا إلى دزرائيلى رئيس الحكومة . .

كان البرلمان فى إجازة ، وكان اليوم التالى يوم أحد ، والبنوك معطلة . وكان لا بد لإبرام الصفقة من صدور قانون . . وفى بريطانيا تقوم التقاليد عموماً ، والتقاليد الدستورية خصوصاً ، كالحراب المسنونة لا يتخطاها ويتجاهلها إلا كل مجازف . إلا أن الصهيونية هى مقامرة أو مغامرة لا تحفل بالقيود التى يحفل بها الذين يسرون على سنن من الأحلاف والقواعد المرعية . ومن هنا سأل دزرائيلى ابن عشيرته روتشيلد أن يقرض بريطانيا أربعة ملايين من الجلنياهات على أن يقبض سمسرة قدرها ٢ ٪ من قيمة الصفقة ، ولم يتردد روتشيلد فى أن يدفع المبلغ مع ما فى دفعه ، من غير موافقة البرلمان ، على الصفقة من مخاطر . . مع الناس . من ذلك

بأمر تلك الصفقة فدعرت السياسة الفرنسية والعالم كله لأنها فهمت أن الأمر في هذه الصفقة يتجاوز المال ، إلى احتلال مصر كلها بعد سبع سنوات من تلك الصفقة . وهذا ما قالته مجلة العالمين للفرنسية بعد شهر من عقد الصفقة ، فقد جاء في عدد أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، في مقال ترجمه السيد الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ما يلي :

« إن هذا العمل سياسى محض ، وهنا وجه الخطر ، فإذا لم يكن في ذاته احتلالاً لمصر فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال . هذا ما فعله روتشيلد في الخطوة الأولى من خطوات الاحتلال فانظر ما فعله في شأن خطوة أخرى من خطوات الاحتلال ، تلك هي المبادرة بخلع إسماعيل حينما تبينت الصهيونية أن الأمر لن يخرج عن أحد أمرين ، إما أن يتولى الشعب خلع إسماعيل بنفسه ، وهو احتمال على ضعفه في ذلك الحين ، كان يطير له صواب الاستعمار والصهيونية ، لأنه إيذان بانفجار الشعب المصري وانطلاقه من قيوده ، وإما أن يحتذى الحديو بالشعب ، ويرضاه ، وهذا ما كانت بوادره وتباشيره قد لاحت في الجو ، فقد كلف إسماعيل ، شريفاً ، بوضع « دستور » وأعلن أنه سيحكم من خلال مجلس الوزراء ، يقاسمه السلطة ، وترك جمال الدين الأفغانى بينر بنور ثوراته الفكرية التي كانت تهز

الاستعمار من جنوره .

وكانت النتيجة فيما لو ظفر الشعب المصري بحقوقه الدستورية ، أسوأ في رأى الاستعمار والصهيونية مما لو خلع الشعب الحديد ، ولذلك كان لا بد من عمل سريع ، تتجه معه الأحداث إلى وجهة جديدة ، فيتولى الاستعمار خلع الحديد ، ثم يستفيد من اضطراب الأمور الذي يلي ذلك الخلع .

ولعلنا لا نجد صورة من صور تحالف الاستعمار البريطانى مع الصهيونية العالمية ، أكثر وضوحاً مما ثراه في حوادث الاحتلال البريطانى لمصر ومقدماته ، فقد كان في مصر ، مراقب مالى بريطانى هو السير ريفرز ولسن الذى أصبح فيما بعد وزير المالية وقد اعتدى عليه الضباط المصريون الثائرون ثم طرد بفضل هذه الثورة من الوزارة ، وخرج من مصر مغضباً محنقاً . فانظر ماذا يقول بلنت في شأنه :

« ولكن الذى لم يدع هو ذلك الدور الذى لعبه آل "روتشيلد" والذى علمته فيما بعد من "ويلسون" — وكان فخوراً بأنه انتقم لنفسه — في عودته من مصر مخنولاً يعم شطر آل "روتشيلد" في باريس ، وبين لهم الخطر الذى يهدد أموالهم من وراء الانقلاب الذى لا بد أن يترتب على قلاقل القاهرة والإسكندرية . . وأقنعهم بأن الحديد كان يعترم أن ينفذ يديه

من ديونه ويلغى التزامه بها ، متخذاً لنفسه ستاراً بإعلان الحكومة الدستورية في مصر . . . ومن ثم فإنهم ولا بد خاسرون كل ما لهم ما لم يبادروا إلى الحيلولة بين الحديو وبين تنفيذ ذلك .

« ونجح ويلسون في إثارة ذعر آل روتشيلد وحملهم على استخدام ما كان لهم من نفوذ سياسى هائل لتحقيق التدخل الفعلى . . . فعملوا أولاً إلى جذب الحيوط التى كانوا يحركون بها حكومتى إنجلترا وفرنسا ، ولكن هذا لم يجدهم فتيلاً ، إذ لم تكن الحكومة الإنجليزية على استعداد للتدخل ، ولا سيما أن الاضطرابات كانت قد شبت فى جنوب أفريقيا . . . ومن ثم اتجه آل روتشيلد إلى برلين ، وإلى بسمارك بالذات ، الذى كان يبسط حمايته على المؤسسة اليهودية الضخمة . . . وبادر بسمارك إلى الإيحاء إلى حكومتى إنجلترا وفرنسا بأن الحكومة الألمانية ستحتضن قضية آل روتشيلد إذا كانتا عاجزتين عن التدخل . . . وكان هذا الضغط كافياً لتوجيه ضغط أوربى إلى الباب العالى ، أدى إلى البرقية التى تلقاها إسماعيل بخلعه . . . وكان من نصيب لاسيل أن يحمل إليه النبأ » .

وإذا أردت أن ترى صورة أخرى من صور تعاون الاستعمار مع الصهيونية فى تبرير الاحتلال البريطانى فاقراً ما يقوله بلنت عن موقف جامبتا ، من المذكرة التى أعدتها حكومتا بريطانيا وفرنسا

وأرسلتها إلى الحكومة المصرية ، بعد أن نجحت الثورة العرابية ، واجتمع البرلمان المصري ، وياشر سلطاته ، على أحسن ما يرام من التوفيق والاعتدال . وكان ذلك النجاح قذى في عين الاستعمار ، وفي عين جامبتا رئيس وزراء فرنسا ، وهو صهيونى ثالث كما مربنا . فكان لابد من مظاهرة بريطانية فرنسية لتهديد حكومة مصر الدستورية التى تستند إلى تأييد من الشعب ، وإلى سند من الجيش ، ويقول « بلنت » :

« فإن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء "جامبيتا" وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات ، لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى . . . كما أنه - لأصله اليهودى - كان على علاقة بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر ، فعوّل على أن يسعى لفرض التدخل الأجنبى على مصر ، ومن ثم كان راغباً فى أن تشترك معه حكومتنا فى حركة صليبية ضد الإسلام - باسم المدنية - تكون أولى خطواتها تشديد الرقابة الأوروبية المشتركة فى القاهرة »

فأنت أينما أدت وجهك ، لا تجد إلا هذين التوأمين يسيران معاً ، ويعتمد أحدهما على الآخر ، حتى يثبت فى يقينك أنهما شخص واحد ، يبغي هدفاً واحداً ، ويعمل بأسلوب واحد .

والحق أنهما كذلك . فإن في العالم اتجاهين قديمين :
 اتجاهاً روحياً يرفع من شأن معنويات الحياة ، واتجاهاً يعلى من
 مادياتها . وقد بنيت على الاتجاه الأول حضارات ثم بادت ،
 وورثتها حضارات تجرى في الاتجاه الثاني . ولكنها تشعر دائماً ،
 بأن الاتجاه القديم يهددها ، فهي في أشد الحاجة إلى أن تفعل
 كل ما في وسعها لتخنقه . . والصهيونية الاستعمارية هي
 المادية التي تكره غاية الكره أن يكون في الشرق روحانية .
 ولذلك فهي تطارده وتقمعه . وما الاستعمار إلا استغلاله ، وقتل
 كل ضجة من ضجعات الروح فيه . ولكن هذا الصراع القديم
 المتجدد ، صراع الروح والمادة ، محتوم النتيجة ، معلوم الغاية ،
 فالغلبة فيه للأقوى ، وليس ثمة شيء أقوى من الروح . . تغلب
 حيناً ، ولكنها لا تغلب إلى الأبد . . .



أنحى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة ، أن يكون قبيل الثورة العراقية في الحكم في إنجلترا اللورد دزرائيلي ، وأن يكون على رأس الوزارة الفرنسية في نفس الوقت جامبتا ، وكلاهما إسرائيلى ، وأن تكون خيوط السياسة العالمية في يد المالى الإسرائيلى روتشيلد ، واجتماع الثلاثة على حلبة السياسة ، كان يؤدي حتما إلى التدخل العسكرى المسلح في مصر ، الذى مهد للاحتلال البريطانى الذى دام اثنين وسبعين عاماً ، وقلت إن دزرائيلي وجامبتا وروتشيلد ، من المؤمنين بالصهيونية العالمية فليسوا هم مجرد إسرائيليين .

وقد بينا ، كيف كان التعاون وثيقاً بين عمل هؤلاء الثلاثة ، وأحب أن أبين لك كيف كان تدخل جامبتا ، في الشؤون الداخلية المصرية البحتة ، تدخلت درست مقدماته ونتائجه ، قبل الإقدام عليه . وأن هدفه الواضح المباشر ألا تقوم في مصر ، حكومة وطنية ، تستند إلى الشعب ، لأن قيام حكومة من هذا الطراز يهدد ، الاستعمار الغربى كله الذى يسنده روتشيلد وأمثاله

ممن يعتبرون الأمم مجرد أسواق ، وأن حقوق الشعوب لا تزيد عن أن تكون سلعة ، توزن لا بقيمتها في ذاتها، إنما بقدر ما تزيد أو تنقص ، في قيمة الأسهم والأوراق المالية .

وقد قامت في مصر سنة ١٨٨١ حكومة وطنية يرأسها شريف ويسندها الجيش بزعامة أحمد عرابي ، وكانت الحكومة قد دعت مجلس النواب للانعقاد ، بعد انتخابات جرت في جو من المودة والوثام القومي ، فانعقدت جلسته الأولى في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، فعد المصريون انعقاده عيداً قومياً، لأن الحكومة والجيش والشعب ، بدأوا في ذلك اليوم كتلة واحدة ، لا يفرقها مفرق ، وتقدم شريف باللائحة الأساسية ، أي الدستور ، وشرع النواب يدرسونها . . . كان كل شيء يشر بأن الاستقرار قد عاد إلى البلاد، وأن عهداً من الإنتاج، وللعمل المثمر، سيشرق فجره ، ولكن الممالين الأوروبيين كان صوابهم يكاد يطير ، كلما شعروا بأن الفوضى بدأت تنحسر موجتها ، وأن إرادة الشعب أخذت ترتفع رايتها ، فأسرع المماليون إلى جامبتا ، فإذا هم يجدون عنده ، مثل ما عندهم من الهم والخوف ، فيتفقان على أنه لا بد من قذيفة تنطلق في وسط هذا الجو الهادي الصحو ، وانتهت مداولاتهم ومشاوراتهم ، إلى وجوب إرسال مذكرة إلى الحديو، تفيض تهديداً للحركة الوطنية ، وتحرك

بواعث التفرقة بين الخديو والشعب ، بتأكيدنا حماية الأجانب للخديو ، ولاستبقاء سلطته في يديه .

ويقول مستر بلنت في صدد هذه المذكرة التي أرسلت فعلاً في الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ :

« والواقع أن المذكرة كتبت في كيه دورساي (أى وزارة الخارجية الفرنسية ، ولخدمة المطامع الفرنسية . . . فقد كان جامبنا في ذعر من أن يتحد العالم الإسلامى أمام الثورة التى قامت في تونس والجزائر ضد فرنسا ، وكان هو على ارتباط بالدوائر المالية العليا ، روتشيلد وكبار المالىين » .

ويقول مستر بلنت في موضع آخر :

« إن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء جامبنا وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى في الحركة القومية المصرية ، مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى كما أنه لأصله اليهودى كان على صلات بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر ، فعول على أن يسعى لعرض التدخل الأجنبى في مصر ، ومن ثم كان راغباً في أن تشترك معه حكومة بريطانيا في حركة صليبية ضد الإسلام ، باسم المدنية » .

وهذه السطور وحدها كفيلة بأن تريك عناصر المؤامرة دائماً

وأسلوبها وهدفها ، فالاستعمار يرى نفسه وحدة ، ويرى الوطنية وحدة كذلك ، ففرنسا حينما تجد حركة وطنية في مصر ، تفهم بالغريزة ، أن نجاح هذه الحركة معناه تأييد للحركة الوطنية في تونس ومراكش ، فلا تقنع بأن تضرب الحركة في تونس ومراكش ، وإنما تعمل على أن تضرب الحركة الوطنية خارجهما ، ولا تقنع بأن تقوم هي بهذا العمل وحدها فتسعى إلى أن تضم معها وإليها إنجلترا ، ومن خلف هذا المسعى كله ، ترى دائماً المالين ، والماليون الذين هم من طراز روتشيلد بصفة خاصة ، وتلقى اللورد جرانفيل ، وزير خارجية بريطانية ، اقتراح المسيو جامبنا ، بالترحيب والتأييد ، وأرسلت المذكرة إلى الحديو توفيق وإلى رئيس الوزراء شريف باشا في الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ كما قلت لك ، وقد جاء فيها ، ما يستحق أن يتلى ، فقد جاء فيها مثلاً :

« إن الحكومتين الفرنسية والبريطانية على تمام الاتفاق في هذا الصدد ، وإن الحوادث الأخيرة ، وبخاصة الأمر الصادر من الحديو ثاجتماع مجلس النواب ، قد هيأت الفرصة لتبادل إنجلترا وفرنسا مرة أخرى الآراء في هذا الشأن ، فأرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية تعتبران أن تثبيت الحديو على العرش طبقاً لأحكام فرمانات التي قبلتها

الدولتان رسمياً هو الضمان الوحيد في الحال والاستقبال لاستتاب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التي تهتم فرنسا وإنجلترا . إن الاستعمار يعرف بالضبط خلف من يحتمى ، ولم يكن ثمة أفضل من الحديو في ذلك الوقت ، ليقف الاستعمار خلفه ، وليقذف بسهامه عن قوسه .

هذا بعض ما فعله جامبتا في سبيل وأد الحركة الوطنية المصرية ، وتشتيت صفوفها ، وفي الحديث الماضي ذكرنا ما فعله دزرائيلي ، بشرائه أسهم حكومة مصر في قناة السويس البالغ عددها ١٧٦ ألف سهم و ٦٠٢ من الأسهم بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ، وكيف أنه بمساعدة روتشيلد المالي الصهيوني قد دبرا ثمن هذه الصفقة في غيبة البرلمان البريطاني وبغير موافقته .

وأحب أن أروى لك ، كيف نقلت هذه الأسهم الغالية من مصر إلى بريطانيا ، فإن ذلك يريك كيف يجمع الاستعمار عناصر حملته على بلد ينتوى الوثوب عليه .

بدأت الحكومة البريطانية باشتراط عدم دفع الثمن إلى مصر إلا بعد تسلمهم الأسهم نفسها ، فأمر الحديو إسماعيل ، الذي باع هذه الأسهم ، بتسليم القنصلية البريطانية هذه الأسهم جميعاً مودعة في سبعة صناديق ، وتم التسليم في القنصلية بعد أن

بصمها إسماعيل باشا المفتش وزير المالية بخاتمه ثم بصمت بخاتم القنصلية البريطانية ومحكمة القنصلية، وكانت الحكومة البريطانية في لطفة على وصول هذه الأسهم إلى لندن ، فأمرت الأميرالية البحرية البريطانية بالباخرة (ملابار) القادمة من الهند أن تعرج على الإسكندرية ، فلما وصلت الباخرة إلى قناة السويس ، استقل الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا قطاراً خاصاً من القاهرة إلى الإسكندرية ومعه الصناديق السبعة التي احتوت الـ ١٧٦ ألف سهم ، وكانت قد فرغت في أربعة صناديق كبيرة من الزنك ، وعند وصول الباخرة سلمت هذه الصناديق إلى قومندان الباخرة ، ولما وصلت إلى ميناء بورتسموت تسلمها مندوب كبير من الخزانة البريطانية نفسها

هذا جانب من الثورة العرابية لا يجب أن نغفله . يجب ألا ننسى دائماً أن السياسة في خدمة الاقتصاد ، هو السيد الأمر ، وليست سوى الخادم المطيع ، الذي وهبه الله أو الشيطان قلرة على التشكل والتلون ، والانحناء والالتواء ، لم توهب لسواه . فالإقتصاد حينما يحتاج لأمر يوحى للسياسة أن تختار الاسم والثوب اللذين تضيفهما عليه . فهي أحياناً تدافع عن حقوق الشعب ، وهي أحياناً أخرى تدافع عن حقوق الملك ، وهي تارة تدافع عن الفقراء ، وهي أخرى تدافع عن أموال الأغنياء ، وهي في كل

حين تجد الجراءة والقدرة ، على أن تبدى دفاعها ، كأنه صادر فعلا من أعماق القلب ، ذلك لأنه صادر من أعماق الجيب ، وفي كثير من الأحيان يلهم الجيب ويوحى ، مثلما يوحى ويلهم القلب .

هناك جانب آخر ، أهمله المؤرخون في بيان أسباب الثورة العرابية ، أو على الأقل أهملوا بيان شأنه في تجمع أسباب هذه الثورة ، وجدير بنا ، ونحن نراجع تاريخنا ، لنراجع حاضرتنا ونقيمه على أسس سليمة قوية ، أن نراجع هذا الجانب الآخر . وأعنى به الحملة الحبشية وأثرها في ضم صفوف الفلاحين إلى الجيش المصرى وفي تثبيت إحساس المصريين بتغليب العناصر الأجنبية عليهم وفي خلع هبة الخديو إسماعيل ونظامه من أنفسهم . لقد أنفذ الخديو إسماعيل حملة ، على رأسها الجنرال ستون ، إلى الحبشة . وكان إنفاذ هذه الحملة صورة نموذجية للتفكير الملكى ، في كل عصر ، فقد أنفذت هذه الحملة ومصر غارقة في ديونها ، وكان الأجانب يوسعون رقعة نفوذهم المستتر المتوارى بايعة هذه الديون .

وقد كانت الهزيمة أمراً متوقعا وقد هزمت فعلاً هذه الحملة ، وتكبدت البلاد خسارة في المال والأرواح والعتاد فادحة ، وعاد الجيش يحمل معه جرائم الثورة التى بقيت مع الجنود الفلاحين حتى ٢٣ يوليو

سنة ١٩٥٢ . أقول ذلك ولا أهزل ، فإن الثورات ، أوعلى الأقل
فكرات الثورات ، تتوارث كما يتوارث الناس الصفات والمواهب
والحصال .

عاد المصريون ، جنوداً ، وضباطاً ، والسخط يملأ نفوسهم فقد
أدت الضائقة المالية إلى تخفيض الأجور والمرتبات ، فلم يعان من هذا
التخفيض سوى المصريين دون غيرهم من ضباط الجيش وجنوده .
هنا قامت الوحدة بين الضباط المصريين والجنود المصريين ،
وشعروا جميعاً بأنه لا نجاة لهم إلا أن يكونوا شيئاً واحداً .

ولقد كشفت حملة الحبشة لهؤلاء الضباط ، ما كشفت حملة
فلسطين في سنة ١٩٤٨ لأبنائهم من ضعف القيادة ، وضعف
النظام كله ، وخلوه من العقيدة التي تسيره فعجل ذلك بقيام
الثورة .

فما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أكمل التاريخ المصرى الحديث !
فإنه يكمل بعضه بعضاً ... يبدأ الآباء ، ويثنى الأبناء ، والأمل أن
يرث الأحفاد وطناً قوياً ، خالياً من شوائب الضعف ، وآفاته
قادراً على حمل رسالة القوة ، كأقوى ما يكون أبناء الوطن .

أخى المواطن :

لقد عرفت كيف دبّرت الصهيونية التدخل الأجنبي المسلح في مصر ، وكيف تعاون روتشيلد وجامبنا وذررايلى ، وثلاثتهم من الصهيوينيين ، على الدفع بالسياسة الإنجليزية الفرنسية ، إلى الوجهة التي تجعل الاحتلال العسكرى لمصر عملاً حتمياً ، لا فرار منه . فلقد جندت الأقلام والصحف ، ووكالات الأنباء لتصور الحركة العربية كحركة تعصب بربرى ، تهدف إلى القضاء على الأجانب ، وذبح المسيحيين ، ولقد حارت حملة الطعن والتشهير ، فى النيل من أحمد عرابى ، فهي حينما ترى اجتماع الشعب حوله ، ومنااداته بحرية المصريين ، تقول لئله إسباني ، تبني قضية مصر وأخذ على عاتقه الدفاع عنها ، وإن الشعب المصرى الذى طال الحكم الاستبدادى عليه ، عقم فلم يعد فى مقدوره أن يلد زعيماً قوياً ، مؤمناً بنفسه وبأمتة ، كما كان أحمد عرابى .

وهي حينما تراه مصمماً على أن يضيق الخناق على الحكم الاستبدادى القاسى ممثلاً في شخص الحديو ، وبالتالي على الوقوف في وجه أطماع الرأسمالية الأوربية رموه بالجهل ، وبكراهية التقدم ، وبالتعصب الأعمى ، ولكنه في الحالين ، كان يلقى في قلب الاستعمار الخوف والهلع ، لأن هذا الاستعمار كان قد فرك يديه سروراً وفرحاً ، حينما عزل الحديو إسماعيل ، قبل أن تشب الحركة الوطنية الشعبية عن الطوق ، فقد كان أملهم في ضعف الحديو توفيق ، وتردده وتذبذبه وخوفه من المصريين ، وشدة تهافته على سلطان العرش . . وكان أملهم فيه عظيماً ، وكان الخطر المحدث بهذا الأمل واكتماله ، هو استقرار الزعامة العرابية .

ولكن لا تظن يا أخى المواطن ، أن الحركة الوطنية التحريرية كانت شخص عرابى وحده تنبعث منه ، وتعتمد عليه وتتحرك به ، فصر وعرابى في هذه المرحلة ، كانت كالصوت والصدى ، والشخص وصورته في المرأة ، فقد كانت مصر قبل الثورة العرابية تضطرم بحب الحرية ، وبالطموح إلى المجد ، وقد حاولت أن تحقق ما تآقت إليه ، وما طمحت له ، في عهد الحملة الفرنسية ، وقبل عهد محمد على ، وفي عهده ، ففعلت الأعاجيب في فترة صغيرة من الزمن لا تزيد عن تسع سنين .

ففي هذه الحقبة التي لا تتجاوز عمر صبي هزمت الغزاة الفرنسيين وضيق عليهم الخناق ، وأجلبأتهم إلى الفرار ، بين سني ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، وعزلت والى تركيا وألقت على كاهلها نير الاستعمار العثماني في سنة ١٨٠٥ وألقت بالإنجليز في رشيد سنة ١٨٠٧ ، وهي أعمال لا تصدر عن شعب عقيم ، خانع ، ولولا أسلوب الحكم الذي انتهجه محمد علي ، لا طردت غزوات وفتوح هذا الشعب الماجد الأبى الخلاق .

فترة محمد علي لم تكن إلا تأجيلاً لكفاح الشعب ، استكملت خلالها مصر ، كيائها كلولة .

فكان حتماً إذن أن يعود الشعب إلى المسرح وأن يستأنف ما بدأه في السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

فتورة عرابي ، ليست إلا تجديداً لكفاح المصريين ، وحلقة جديدة في سلسلة نضالهم الذي استمر حتى بلغ مرحلة عظمى من مراحلها في ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ ، ثم استرسل في ميادينه التي فتحت أبوابها له ، وكانت حراماً عليه .

* * *

لقد درجت الكتب ، ودرج الكتاب ، على أن يتحدثوا في الثورة العرابية عن كل شيء إلا دور الشعب المصري ، فهم

يتحدثون عن مقدمات الثورة وأسبابها وعن يوم عابدين الذى اجتمع فيه الجيش ومن خلفه الشعب فى خلال سنة ١٨٨١ ، يوم أن أعلن عرابى ، أن الشعب ليس ميراثاً أو عقاراً ، وأن المصريين لن يورثوا بعد اليوم ، ويتحدثون عن حرق الإسكندرية وضربها وعن التل الكبير والهزيمة فيه ، وتبحث عن الشعب فى هذا كله ماذا فعل ، وبأى شىء ساهم ، هل كان يشاهد ويتفرج ؟ هل كان يساعد ويتطوع ويتبرع ؟

والجواب على ذلك يأتينا من الأجانب ومن عرابى نفسه . . . أما الأجانب كالسويسرى جون نينه ، وكالإنجليزى بلنت ، فقد افتنّا فى تصوير صورة رائعة ، لشعب مؤمن ، قوى الشكيمة ، حارب فى ظل أسوأ الظروف وأتعسها ، بلا سلاح ، أو عتاد ، أو خطة سابقة ، ومع ذلك احتمل واستبسل . أما عرابى ، فحسبك أن تسمع منه .

» قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الإنجليزى المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية وأنزلها فى الدونمة الإنجليزية (الأسطول البريطانى) قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى ، وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

« وبناء على ذلك تحرر في المجلس العام إلى المديريات
بتحصيل الأموال من الأهالي عن كل فدان عشرة قروش ،
ومن شاء أن يتبرع بشيء إعانة لإخوانهم المجاهدين في سبيل
المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان
الشكر . ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها
ونحلها بالمال والغلال والحلil والجمال والأبقار والحواميس والأغنام
والفاكهة والخضراوات حتى حطب الحريق .

« ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشي
ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده
للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجمله فإن
الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من
النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد في القرون الخالية ، أسأل الله
مبجحانه وتعالى أن يجزي الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها
واستقلالها . »

وقد نقل الأستاذ محمود الحفيف في كتابه عرابي الزعيم
المفتري عليه كتاباً أرسله من منفاه إلى صابونجي صديق المستر
بلنت الكاتب الإنجليزي الذي كان على صلة بعرابي والعرابين
وقد جاء في هذا الكتاب :

« أرجو أن تذكر صديقنا مستر بلنت فضلاً عما كتبناه إليه

بتاريخ ١٥ الحالى (يولية سنة ١٨٨٣) أن جميع النفقات التى
لزمت هى مائة ألف جنيه مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات
من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدأت الحرب ولم
يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى ولا أكثر من ألف
ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم
يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه
عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديرىات
المختلفة والمخازن ما تزيد قيمته عن مليون من الجنيهات من المال
والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك
قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها . ولم ينفق على
الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة .

تأمل فى هذه العبارة الأخيرة ، تبدى لك الثورة العرابية ،
فى ثوب آخر ، وتفهم الحرب التى قامت بين مصر وبريطانيا فى
سنة ١٨٨٢ فى ضوء جديد .

فالثورة كانت ثورة شعب ، بكل ما فى كلمة شعب من
معنى . شعب بجميع طبقاته وأفراده ، بكل طوائفه ، على اختلاف
مراكزهم وعقائدهم ونزواتهم . يقفون جميعاً ، طواعية وبلا إكراه ،
خلف مثل أعلى ، يؤمنون به ، ويعملون على تحقيقه .

وأى شعب هذا الذى يفعل ذلك ؟ شعب أثقلته ديون الأسرة

المالكة ، واجتمعت عليه دسائس الدول . واختلطت بين صفوفه
أجناس شتى ، كل منها يبحث له عن مأرب ، شعب لم يكن
يعرف من الحياة إلا السخرة ، والحروب التى يلقى إليها كحطب
الفرن ، لا يعلم لها غاية ، ولا يترك لها سبباً .

شعب يقف ملكه فى جانب ، وقائده فى جانب ، ويعبث
به وبعقائده ، باسم الفضائل حتى أوشك أن يكفر بها جميعاً ،
لولا عراقته ، وأصالته ، وثباته فى وجه الأحداث والمحن
شعب يحارب ، وخزائنه التى اجتمع فيها المال ، من عرقه ،
ودمه ، ينهبها أعداؤه حتى لا يجد قوت يومه . . .

هذا الشعب هو مجموع آبائنا الذين صورهم لنا التاريخ
الزائف ، ضعفاء ، جبناء مترددين ، هذا الشعب ، هو نحن ،
فلنشق به وبأنفسنا .

قد تحمل كلام الزعيم أحمد عرابى ، على محمل المبالغة أو
المباهاة التى يضطر إليها الزعماء اضطراراً . ومن ثم يجب أن نقرأ
ما يقوله الشيخ محمد عبده ، ولم يكن على اتفاق كامل مع
زعماء الثورة العرابية . بل إن الأمر بينه وبينهم انتهى إلى ما يشير
إلى الخلاف الصريح . اقرأه يقول فى خطاب أرسله من السجن إلى
مستر برودلى المحامى الذى ترافع عن عرابى أمام المحكمة العسكرية
الخاصة التى شكلت لمحاكمته :

«هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؟ فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماسة غريبة وبكل ما أوتوه من قوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز إني لم أعلم أنه قبل إن الحديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عرابي من منصبه (كوزير للجهادية أى الحربية) لأنه لم يمثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز إتقاء لتزول الأعداء منها » .

أحى المواطن :

لقد هزم الجيش المصرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فى التل الكبير ، وقد بقيت هزيمته تكوى جباهنا ، بنار العار ، اثنين وسبعين عاماً . ولكن هذه النار ، استحالت مع الزمن من نار العذاب ، إلى نار التطهر ، نفت عنا جنة التهاون والاستسلام ، إن هذه النار هى التى أشعلت فى عروق مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، دماءهما ، فتدفقت تحمل إلى قلوبهما ، مدداً من الإيمان بمصر ، والإيمان بشرف النضال فى سبيلها .

وقد بقيت حقائق هزيمتنا ، مغطاة بأكداس من الأكاذيب والأوهام ، والدعايات ، حتى لم يبق من أبناء مصر من يعرف بالضبط أمرها . كانت أشبه شىء بموطن الذل ، لا يحب أحد أن يتجه إليه ، أو يقترب منه ، فاستغل خصومنا ، هذا ، فأشاعوا أن مصر ، كانت فى هذه الهزيمة ، مثلاً للأمة المهلهلة التى استسلمت لأول ركلة من قدم الأعداء ، وهذا كذب صراح ، فإن أبناء مصر مهما ادلهمت الخطوب ، وتحالفت

عليهم الكوارث يلمع منهم في ظلام مصائبهم نور ، يعلن ان
شمسهم لم تنطفى ، وإنما حجبها سحب كثيفة في السماء .

* * *

لا يحمل بنا أن نقر من مواجهة هزيمة التل الكبير ، فإن
حياة الأمم ، لا تمضي كلها انتصارات ، بل علينا أن نقف أمام
هذه الهزيمة ، وأن نفكر فيها ، ونتأمل عناصرها ، لنعرف ما إذا
كان مردها ، لعيوب أصيلة فينا ، أم لأسباب طارئة ، عارضة ،
تشبه ما يطرأ على الجسم الصحيح القوى ، من علل وأمراض ،
قد تضعفه حيناً ، ولكنها تزيد على الأيام مناعته .

يجب أن نقرّ أولاً ، بأن عدتنا في الحرب مع الإنجليز ،
كانت جيشنا . فهل كان جيشاً كبقية جيوش الأمم ، تتولاه
الحكومة بالرعاية وتبني له أسباب القوة ؟ وهل وجد من يحنو على
إذكاء روحه المعنوية ؟ لقد كانت الأسباب المباشرة لثورة عرابي
وإخوانه ، التفرقة الجائرة في معاملة أبناء الفلاحين ، وأبناء
الأتراك والشراكسة في الجيش المصري . فقد كانت المراتب
الكبرى وقفاً على الدخلاء والأجانب ، وكانت أعمال السخرة التي
لا تمت إلى شرف الجندية بسبب ، مهانة خاصة لأبناء الفلاحين ،
وليس ثمة أقتل للجيش في أن تسوده روح التفرقة وأن يضمّر
الجندى الكراهية لقائده ، وأن يعلن القائد الاحتقار ،

لعساكره ، وقد مر بنا في حديث سابق ، أن مما عجل بإشعال نار الثورة ، في قلوب الضباط المصريين الذين قادوها فيما بعد ، ما رأوه في حملة مصر على الحبشة ، من استئثار الضباط والقواد الأتراك ، بالمرتبات ، دون الضباط المصريين وجنودهم ، الذين حرّمهم الارتباك المالى قبض رواتبهم ومكافآتهم ، وقد نجحت الثورة العربية في إقناذ الجيش المصرى من القيادة التركية الظالمة الجاهلة ، وبدأت تنفخ في هذا الجيش روحاً جديدة ، وقد كان هذا التحول خليقاً ، بأن ينشئ من الجيش المصرى قوة عسكرية ، كاملة يحسب لها حساب ، لولا أن أحداث السياسة الداخلية والخارجية ، تعاقبت في سرعة ، حتى كانت واقعة التل الكبير في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ثم أعقبها الاحتلال .

فمن المستحيلات ، أن تكلف الجيش المصرى ، الذى لم يكن يبلغ ثمانية عشر ألفاً من الجنود بحكم القيود الدولية التى فرضت على مصر ، والذى كان قلبه وعقله أجنبيّاً لا ينبض بشعور مصر ولا يفخر بالانتساب إليها ، ولا يفكر في سعادتها ورفاهيتها ، بل من المستحيلات بأن تكلفه بأن يخوض حرباً ناجحة مع دولة كبريطانيا ، كانت بلا جدال في ذلك الحين ، أغنى دول العالم ، وأوسعها رقعة ، وكانت في الوقت نفسه ، أكبر

قوة استعمارية ، مرت على العبث بالأمم وتفتيت قواها بالدسائس وبت الفتنة .

لم تكن الروح المعنوية ، وحدها ، هي التي تنقص هذا الجيش ، ولم تكن قلة عدده هو العجز الوحيد الذي كان يشكو منه ، فإن موارده كانت أقل من أن تعينه على منازلة الإنجليز ، فقد أغلق الاستعمار والطغيان والإسراف ، أبواب المصانع الحربية ، فأصبح الجيش المصرى عالة على أوروبا ، يستورد منها كل ما يلزمه من سلاح وذخيرة وعتاد . فلم يكن والحال هذه فى مقلور أحمد عرابى ، أن يزيد من سلاح الجيش ، لأن باب هذه الزيادة مقفل فى وجهه للأسف الشديد .

وقد تسأل ، ومن حقلك أن تسأل ، كيف لا تكون معنوية الجيش المصرى ، الذى حارب الإنجليز سنة ١٨٨٢ ، فى أعلى مراتبها ، وهو يخوض حرباً وطنية ، ضد غاصب أجنبي ، وكيف يتفق القول بضعف معنوية الجيش المصرى مع ما حدثتكم عنه فيما سبق ، من اشتعال مصر كلها حماسة وغضباً ضد الإنجليز ، ومع ما ذكرته من تسابق مصر إلى التبرع بالأقوات والغلال والثياب والعتاد ، للجيش المصرى حتى بلغ مجموعها أكثر من مليون من الجنيهات كانت مصدر الجيش والحكومة ، فى الإتفاق على الحرب بعد أن خلت خزائنها من

كل ملين ، بعد أن سطا المستر كلفن مراقب وزارة المالية
الإنجليزية على هذه الخزائن ، فنقل ما فيها من مال إلى الأسطول
البريطاني الذي كان راسياً في مياه البحر الأبيض .

ولكن في الواقع كان هنالك فرق شاسع بين تحمس الشعب
للدفاع عن شرف بلاده ، واستعداداته للتبرع ، وبين معنوية الجيش
المقاتل . ذلك لأن الجندي الذي يطلب منه أن يجود بدمه
وأن يحتمل أقصى المشقات وأن يكابد أفدح التضحيات ، يحتاج
لشيء أكثر من الحماسة العامة ، لكي يثبت قدمه ، فلا يزيغ
بصره ، ولا يهن إيمانه ، لا بد أن يكون متيناً الهدف الذي يحارب
في سبيله ، وأن يكون مدركاً القضية التي يدافع عنها ، وأن
تكون لديه مناعة ضد دعاوى التردد والهزيمة ، فإن سمع منها
شيئاً أصم أذنيه عنها ، ومضى في طريق الكفاح ، لا يلوى على
أحد . ولذلك تبذل الأمم الملايين على إعداد الجيش مادياً ،
وتنفق المليارات لإعداد الجيش معنوياً ، وهي لكي تنجح في
الإعداد ، تبدأ به في المدرسة ، والمنزل ، ثم تتابعه في الطريق
والمعبد ، فليس كافياً أن تقول للجندي داخل الثكنة ، إنه
يحارب في سبيل بلده ، بل يجب أن تردد هذا على أذنه ، وهو
بين أفراد أسرته ، وهو يطالع صحيفته ، وهو يتناول طعامه ، وهو
يتسلى في المسرح والمقهى .

ولقد كان من سوء طالع الثورة العرابية ، أن الحرب دهمتها قبل أن تنفسح لها فرصة التربية القومية ، فقد بدأت الثورة في أخريات سنة ١٨٨١ ، وشبت الحرب في منتصف السنة الثانية ، وقد عجل الإنجليز بالهجوم على مصر في يولية سنة ١٨٨٢ لأنهم أدركوا أن كل وقت يمضي على الثورة ، إنما هو تثبيت لجنورها وتمكين لعقائدها ، وتعليم لأبناء مصر ، وتلقين لهم .

ولا بد أن نذكر الظروف التي ولدت فيها الثورة . ولدت الثورة وليس هناك مثل أعلى واضح للمصريين . فالدعوة إلى الإصلاح الديني ، تستأثر بألباب بعض الناس ، والدعوة إلى الإصلاح الدستوري تستهوي فريقاً آخر ، والحديث عن القومية المصرية يتردد ضعيفاً ، على ألسن فريق ثالث ، ومن هنا انفسح المجال لعبث الأعداء وقتهم ، فقد كان الإنجليز يضربون الشعب المصري باسم الخديو ، ولي الأمر ، الذي أقامه على البلاد خليفة للمسلمين .

انظر مثلاً إلى البلاغ الذي أذاعه الجنرال ولسلي في التاسع عشر من أغسطس إلى المصريين :

« بأمر الحضرة الخديوية، يعلن الجنرال قائد الجيوش

الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية في إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصري ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة

الحديوية وعساكرنا يحاربون فقط حاملي السلاح ضد سموه .
 فالإنكليز هنا يتكلمون هنا باسم الحديو ، فإذا قلنا إن الحديو
 فقد في نظر الشعب مكانة ولى الأمر لانحيازهم إلى جانب الأعداء
 فماذا نقول في محمد سلطان باشا ، الذى كان رئيساً لمجلس
 النواب ، والذى ناصر الحركة العرابية ، وقتاً حتى استحق أن
 يسمى « بآبى المصريين » ؟ ماذا نقول فى أنه أصبح رسول الحديو
 إلى الضباط المصريين ، يغريهم بالنكوص ، ويحرضهم على التمرد
 ويمنيهم بحسن العاقبة ، إذا هم انحازوا للحديو ، وتركوا عرابى ؟
 لا شك أن محمد سلطان وأمثاله من أعيان المصريين ، لم يكونوا
 ليتذبذبوا هذا التذبذب لو لم يكن الحديو عدواً للمصريين ؛ ولم
 يكن الحديو ليجرؤ على مجاهرة المصريين بهذا العدوان ، إلا
 لأنه كان يطمع فى أن يصدر الخليفة - أى سلطان تركيا -
 إعلاناً بأن أحمد عرابى عاص للدولة الخلافة ، وقد حدث هذا
 فعلاً ، فى السادس من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، أى قبل وقعة التل
 الكبير بأسبوع ، وقد جاء فى هذا الإعلان : « أن الدولة العلية
 السلطانية ، تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامة
 دولة محمد توفيق باشا وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لإرادة
 الدولة العلية ، ثم التمس من جانب الحديو العفو فعفا عنه ،
 ونال أيضاً من الحضرة السلطانية العفو العام ، وإن الشرف الذى

نال أخيراً من الحضرة العلية السلطانية إنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم، وقد تحقق الآن رسمياً أن عرابي باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد بالعساكر بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة الخليفة للدولة العلية السلطانية .

فأنت ترى من هذا كيف تداخلت المثل العليا في الثورة العربية تداخلا يبطل بعضها بعضاً، إذ استغل الإنجليز كل فضيلة، ليفتتوا الوحدة المصرية، فاسم الخلافة، واسم ولي الأمر، واسم الدستور، تعمل كلها في جبهة، ويعمل الفلاح المصري وحده برياسة أحمد عرابي في جبهة عزلاء من السلاح، ومن المال، ومن التحضير السليم الصحيح، الذي يحتاج لفسحة من الوقت، وتعاون بين العناصر. فليس إذن تجنباً على الواقع، ولا تشويهاً له إذا قلت إن معنوية الجندى المصري، الذي كان يحارب دفاعاً عن بلاده أمام الإنجليز، لم تكن من القوة إلى الدرجة التي كان يتطلبها حرج الموقف، وشدة تألب الأعداء. ولو اتسع الوقت للثورة العربية، لقضت على الأوهام والأكاذيب، التي كانت تثار تارة باسم الخلافة وأخرى باسم الحديو، وأخرجت للناس ثقافة وطنية ثورية موحدة، لجمع الضفوف، وسد الثغرات في وجه الأعداء.

ولا تظن أن هناك أمة من الأمم ، تؤمن بأى مثل أعلى ، فى يوم ليلة ، فإن الأمم ، كالأفراد ، تحتاج إلى الإلحاح فى الدعوة وكثرة ترديدتها ، وتحتاج إلى التذكير بها وقت الشدة ، ووقت الرخاء حتى تثبت فى نفسها ، فإذا غشيتها بعد ذلك غاشية من المحن استطاعت أن تثوب إلى إيمانها وأن تستمسك به .

ولو نظرنا فى تاريخ الأديان ، لوجدنا أن المؤمنين الأوائل ، احتاجوا إلى حقبة غير قصيرة من التربية ، يتلقونها على يد الرسول نفسه ، ثم يتعرضون مع ذلك لمحنة الشك ، المرة بعد المرة ، حتى يثبتوا آخر مرة .

وإن أردت المثل ، على الفرق بين المقاتل الذى درب ، وتلقى تحضيراً معنوياً ، وبين من لم يسعفه الخطر بمثل هذا التدريب والتحضير ، فاقراً ما يقوله أحمد عرابى نفسه فى مذكراته المخطوطة ، فى وصف ما أصاب الناس بعد وقعة التل الكبير ، يقول :

« ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحماً بالخيـل والجمال والعساكر مشتين ومولين ظهورهم للعدو فذهبت إلى القنطرة التى على التربة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، وأذكـرهم بالشرف الإسلامى والعرض والوطن فما كان سميع أو بصير . »

ولكن لم يكن هذا حال الجميع ، فإن الضباط الذين لم
تؤثر فيهم بلاغات خليفة ابن عثمان ولا دعاوى محمد سلطان ، ولا
رشاوى محمد توفيق ، استطاعوا أن يسجلوا صفحة من أشرف ما
انطوى عليه تاريخ الكفاح من أجل الأوطان على مر الحقب ،
نعم استطاع محمد عبيد وأحمد فرح وعبد القادر عبد الصمد ،
وحسن رضوان أن يشحنوا الأعداء جراحاً ، وأن يدفعوا عن
بلادهم ذل العار.

أخى المواطن :

لقد هزمنا الإنجليز في التل الكبير سنة ١٨٨٢ كما حدثتك ،
ولكن لم يكن ذلك لنقص في رجولتنا ، أو لضعف في وطنيتنا ،
أو لخور في عزيمتنا ، وإنما للأسباب التي ذكرت لك أكثرها .
قلت لك إن هزيمتنا قد جاءت بعد قتال مشرف ، كانت
فيه مواقف للشعب وللجيش معاً تؤكد أن مصر ، دائماً ، حينما
تجتمع لها زعامة ، مؤمنة مخلصه ، تستطيع أن تثب إلى القمم
العالية .

وقد أنشر عليك صفحات من هذا القتال المشرف .
ولقد بدأت صفحات هذا القتال ، بوقفه الجيش والشعب ،
في معركة ضرب الإسكندرية في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وبدأت
مقدمات هذه المعركة حينما طلب قائد الأسطول البريطاني في
١٠ من يولية سنة ١٨٨٢ ، من قائد الطوابى المصرية بأن يسلم
له مدافع هذه الطوابى ، وإلا فإنه سيضرب المدينة .
فردت الحكومة المصرية على ذلك الطلب الذى كان مفتوح

القتال بين الأسطول البريطاني بقطعه الضخمة العديدة ، وبين الإسكندرية العزلاء ، قالت الحكومة :

« نحن هنا في وطننا وبيتنا فمن حقنا ، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح » .

أخذ الأسطول البريطاني في الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ، يمحط طوابي المدينة القديمة التي لم تمتد إليها يد التعمير أو الإصلاح أو التسليح منذ أنشئت ، بقنابله ، وكان حماها المدافعون عنها ، يعلمون أن ما يخوضونه ليس حرباً ، وإنما هو مجزرة يذبحون فيها ، ومع ذلك لم يتردد واحد منهم ، عن القيام بواجبه غير طامع في الحياة ولا ساع للنجاة . ولست أمل من أن أردّد على مسامع إخواني الشبان هذه الصورة الرائعة التي رسمتها ريشة الكاتب السويسري جون نينه قال :

« ما أبدع هذا المنظر ! منظر الرماة المصريين ، الذين كانوا قائمين على مدافعهم ، وهي مكشوفة في العراء ، وكأنهم في استعراض حربي لا يرهبون الموت الذي يكتنفهم ، إذ لم

يكن لهم دروع واقية ، ولا متاريس ، وكان معظم الحصون بلا ساتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء وادي النيل ، كما نلمحهم وسط الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغى ، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ، ويستهدفوا لنيران مدافعه .

وإذا كان ذلك موقف المقاتلين في الجيش ، فانظر كيف كان موقف أفراد الشعب : نقل الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن الشيخ محمد عبده :

« كان الرجال والنساء تحت مطر القنابل ونيران المدافع ، ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية ، الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يتغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله . »
ونقل عن أحمد عرابي نفسه :

« وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات . »

ونقل عن محمود باشا فهمي في كتاب البحر الزاخر :
« ورأيت في ذلك الوقت بعني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين وأم كيه ، وطوابي باب العرب وهمهم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر ، وخراطيش

البارود والمقنوفات هم ونسائهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالي يعمر المدافع ويضربها على الأسطول .

قل لي بربك أيها المواطن العزيز ، ماذا تطلب من شعب ، أكثر من أن يواجه الخطر ، بلا خوف ، ودون أن تشييه الهزيمة المحقة عن مواصلة القتال ، أو ترهبه قوة العدو وتفوقه في السلاح ، وتحصنه في أسطول ضخمة ؟ !

ماذا تطلب من أعرق الجيوش وأشدّها علماً بفنون الحرب ، وأقدمها عهداً بالمعارك إلا أن تصمد لأهوال المعركة ، فلا تضطرب ويختلط حابلها بنابلها ولا تفر وتهيم على وجهها ثم تواصل عملها ، في مكانها ، وكأن الموت لا يحيط بها من كل جانب ، وكأن الإخفاق لا يتعقب منها كل خطوة ؟ !

ولقد فعل مقاتلونا في الإسكندرية كل هذا ، حتى تصور جون نينه الكاتب السويسري أن من كان يواصل القتال من الجنود في هذه الطواحي القديمة الحربية ، كان أشبه شيء بأرواح الذين استشهدوا وكأنما قد بعثت بعد الموت لتواصل القتال نفسه . ظن الإنجليز بعد أن أشعلوا النار في مدينة الإسكندرية بقذائف أسطولهم ، أنهم قادرين على أن ينحدروا إلى العاصمة في غير عناء ولا جهد ، ولكن كانت للجيش المصري وقفة في كفر الدوار صدتهم وخيبت أملهم في انتصار رخيص .

وعلى الذين تخجلهم هزيمتنا في التل الكبير أن يعرفوا شيئاً
عن كفر الدوار .

انسحبت حامية الإسكندرية بعد ضربها بمدافع الأسطول
البريطاني فألى أين تذهب ؟

قال محمود فهمي باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري
وهو يستجوب في السجن بعد إخفاق الثورة العرابية :

« توجهنا إلى كفر الدوار ، وطلعنا إلى المحطة ومنها إلى كنج
عثمان ، وكان تقابل معنا حسن بك بن الشيخ عثمان فوجدنا
هناك تلاً قديماً فسأل عرابي عن اسم هذا المكان فقال له حسن
بك اسمه تل الناصر فالتفت إلى عرابي وقال إن ابتداء استحكاماتنا
يكون هنا ، وأمرني بإنشاء استحكامات وحرر يطلب العساكر
وطلب الأنفار للعملية » .

واختيار هذا المكان المنيع ، على الفور ، يدل على فطرة
عرابي العسكرية السليمة التي لم يكن ينقصها إلا تجارب حربية ،
حتى تفتح براعمها ثم تتوالى ثمارها .

ويقول بلنت في الثناء على هذا الموقع :

« لم يكن في وسع عرابي أن يصنع خيراً من اتخاذ هذا المكان
مستقراً لمعسكره الجديد ، لقد كان بعيداً كافياً عن مدافع
سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق

الضيق الذى مهده خط سكة الحديد، وبهذا لم يمكن اقتحامه من جهة الإسكندرية فى حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بإمداداتها التى لا تكل، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة. وهنا استطاع الجيش أن يثبت أمام الإنجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع، يصد كل الهجمات، بل يدفع العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الإسكندرية ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بنجاح».

هذه العبارة الموجزة التى نقلتها لك عن بلنت، تقطرح حقاً، وهى توجز فى الواقع مأساة مصر، فلقد صد المصريون، غزو الإنجليز، عند كفر الدوار، هذه الأسابيع الكثيرة فتحول الإنجليز إلى المنفذ المفتوح أمامهم، وهو قناة السويس. والجانب الشرقى من مصر، ولهذا التحول ولآثاره حديث سأفصّل به إليك فى حديث آخر، فهو جدير بأن تفرد له، وللملابسات الدولية التى أحاطت بانتصار الإنجليز علينا فى الميدان الشرقى، فصلاً قائماً بذاته لا سيما أن ما وقع فى هذا الجانب الشرقى من بلادنا سنة ١٨٨٢ بى يؤثر على حياتنا العامة. وحياتنا السياسية، ومركزنا الدولى، حتى أبرمت اتفاقية الحلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤، وسيتبقى يؤثر على حياتنا العامة، وحياتنا

السياسية ، حتى تؤول قناة السويس إلينا ، وتنسبط عليها إرادة مصر كاملة غير منقوصة .

اختار عرابي نقطة جبل الناصر ، لتبنى عندها استحكامات الجيش ، بعد انسحابه من الإسكندرية ، وعهد إلى محمود فهمي باشا في بناء هذه الاستحكامات . ومن حق محمود فهمي على أبناء الجيل الجديد أن يعرفوا اسمه ، وأن يعرفوا العمل الجليل الذي قام به ، وهو في الحق ، جدير بكل إعجاب وتقدير من أبناء مصر : تخرج محمود فهمي من مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) ونبغ في الفنون الهندسية وقد رشحه نبوغه ، وتفوقه ، لمنصب أستاذ لعلم الاستحكامات العسكرية ، ثم عهد إليه في عهد سعيد بتحسين شواطئ مصر الشمالية ، ثم اشترك في حرب البلقان التي نشبت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧١ ، فأضاف إلى خبرته النظرية ، تجربة عملية في الحرب ، إلى جانب تجربته العملية في السلم ، فأكمل له كل ما يلزم لتفتح عبقرية أصيلة ، اكتمل له حب المدرس ، وفرصة التجربة الهادئة في السلم ، وفرصة التجربة في ظل الشدة أثناء الحرب .

وقد أمر محمود فهمي ، بسد تروعة الحمودية التي تمد الإسكندرية بالماء ، فانزعج الإنجليز لذلك إذ أحسوا أنهم مهددون بخطر لا قبل لأسطولهم برده ، فأنفذوا حملة قوامها

نحو ألف مقاتل يقودهم جنرال، فلما بلغوا موقعاً لا يبعد عن خطوط المصريين بأكثر من كيلو ونصف كيلو، تصدى لهم المصريون بقيادة البكباشين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم أول الأمر، ثم ردوهم على أعقابهم، فقروا مهزومين، وجدد الإنجليز هجومهم في اليوم التالي، وقد أعدوا له عدة قوية على وجه شرحه الأستاذ محمود الحفيف في كتابه القيم عن عرابي وهو يقول في هذا الموضع :

« وثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً، ودافعوا في هذه المعركة دفاعاً مجيداً. وأبلى البكباشي محروس بلاء حسناً في صد ميسرة الإنجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله، وكذلك أظهر البكباشي محمد فودة بسالة وجلداً عظيمين في الهجوم على قلب الإنجليز وميسرتهم. وجاءه المدد بقيادة أحمد عفت وتعليب وخجازي ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار، وبعد ست ساعات من القتال الشديد، ارتد الإنجليز منهزمين ولحق بهم المصريون، حتى حجبهم الظلام عنهم .

« وأخيراً ثبت للإنجليز أن اختراق هذه الاستحكامات، يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ وكان الخوف من امتناع الماء العذب عنهم، ومن احتمال قطع البحر عليهم، وإغراقهم، كما

أغرقهم المصريون من قبل في سنة ١٨٠٧ ، يزيد في معنويتهم ضعفاً ، فاستقر عزمهم على أن يغزوا مصر من جانب القناة ، وأن يدوسوا في سبيل هذا الغرض ، حياد تلك القناة ، وكل ما تقضى به الاتفاقات الدولية التي وقعوا عليها ، والتمروا بها .

إذن لم تكن هزيمة التل الكبير ، لضعف إرادتنا في القتال ، أو تزعزع عزمنا على مواصلته ، وإنما للأسباب التي أوردتها لك ، والتي لا يسأل عنها المصريون كشعب ، إلا بقدر ما يسأل الجسم السليم الصحيح ، الذي تتسرب إليه ميكروبات الأمراض عن إصابته بالمرض .

كان أول التحام بين المصريين والإنجليز في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ في قرية المسخوطة ، وقد سقطت هذه القرية كما سقطت نفيشة ، ولكن المصريين هاجموا معسكر الإنجليز في القصاصين في الثامن والعشرين من أغسطس ، فأجلوا الإنجليز عن المواقع الأمامية ، واحتلوها ، وكف الإنجليز عن الهجوم بعد الهزيمة نحو أسبوعين ، لأن سلاح الحياة الذي أرادوا أن يضربوا به المصريين من الخلف لم يكن قد أثمر ثمرته بعد ، ولم يكن السلطان قد أعلن بعد قرار عصيان عرابي .

هجم المصريون على الإنجليز في اليوم التاسع من سبتمبر ، فأخذ الإنجليز على غرة ، وكاد يقع دوق كنوت أسيراً ، وأبلى

اللواء على فهمى وراشد حسنى بلاء حسناً، إذ لم يخرجوا من المعركة إلا بعد أن أصيبا بجروح أقعدتهما عن مواصلة القتال .

وحل يوم التل الكبير ، وكانت الحياة قد أفرخت ، وكانت جبهة الإنجليز والحديو والسلطان قد التأمّت وسد ما فيها من ثغرات ، فأحيط بالمصريين من كل جانب ، ولكن بقي للشرف المصرى جماعة أبت إلا أن تموت ، وهى شاكية السلاح وإلا أن يمر الأعداء إلى حمى الوطن ، على جثمانها الهامد ، فأحاط الخلود هذه الأسماء بإطاره الباقي على الزمن . . نعم ، استشهد فى ذلك اليوم استشهاد الأبطال الأميرالاي محمد عبيد ، وأحمد فرح ، وعبد القادر عبد الصمد ، وحسن رضوان ، فلنحفظ أسماءهم ولننقشها على قلوب أبنائنا ، ليعرفوا أن مصر لا تتخلى عن الشرف حتى فى يوم الهزيمة .

أخي المواطن :

السؤال الذى أود أن أطرحه عليك وأن أناقشه معك هو : هل كان يستحيل على الإنجليز أن يهزموا المصريين فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، لو لم تكن قناة السويس قد شقت ، أو لو لم تتردد قيادة الثورة العرابية ، فى ردم هذه القناة ؟ وسدها فى وجه الأساطيل الإنجليزية التى أنزلت جيوش بريطانيا ، على شاطئ القناة ؟ وهل أخطأ بالتالى عرابي وإخوانه إذ لم يبادروا إلى ردم القناة ؟

ولكى نستحضر معاً عناصر الموضوع ، أذكرك بما سلفت إليه الإشارة من أن الإنجليز عجزوا عن أن يخرقوا خطوط الاستحكامات التى أنشأها محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى كفر الدوار ، وأن محاولاتهم التى بذلوها خلال خمسة أسابيع ، فى هذا السبيل ذهبت كلها سدى .

فاتجاه الإنجليز إلى الناحية الشرقية ، ومحاولة التسلل منها إلى بلادنا ، كان اتجاهاً مفروضاً عليهم ، ألزمهم به هزيمتهم فى الجبهة الغربية .

ولقد أحس ديلسبس أن قناة السويس، ستلعب دوراً كبيراً ، في المعركة بين مصر وإنجلترا ، فوصل إلى الإسكندرية في التاسع عشر من يولية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ضرب الإسكندرية، بثمانية أيام . ولم يفرح الإنجليز بمقدمه ، لأن فرنسا كانت خليقة بالألا ترضى باتفراد إنجلترا بهذه الغنيمة الثمينة النفيسة ، لو كانت سياسة فرنسا في ذلك الحين تفهم شيئاً ، أو تقدر على تنفيذ ما تفهمه . وديلسبس كان فرنسياً من ذوى العزم لا يتردد تردد وزراء فرنسا ، فكان من المحتمل كثيراً أن يوصى حكومة بلاده بشيء يعرقل مساعي إنجلترا ، وأخيراً كان ديلسبس رئيس مجلس إدارة شركة القناة، وكانت القناة موشكة أن تصبح مسرح الجريمة الدولية، التى تخوض بريطانيا أوحالها، وكان بحكم ارتباطه الوثيق بهذه القناة، قادراً على أن يحدث في الموقف الدولى حدثاً ذا شأن لو أنه اعتصم بالعزم والإرادة .

وقد توقع ديلسبس، أن يقوم المصريون بردم القناة، وتوقع أن ينتصر المصريون، وألا ينجح الإنجليز في فتح مصر، وتوقع أن تنطلق يد الحكومة الوطنية وقتذاك في القناة ، بعد ردمها ، وتسترد الحقوق التى ضيعها الحديو على المصريين بسياسته الحمقاء ، أو على الأقل تثور صعاب جديدة في وجه شركة القناة . لذلك حاول ديلسبس أن يمنع الإنجليز من أن يتزلوا جنودهم في أية نقطة على

القناة، وهدد بأنه سيعطل القناة ، إذا خرق الإنجليز حيادها .
 والتعطيل الذى كان يقصده، ديلسبس شىء غير الردم . وقد
 شكت بريطانيا ديلسبس إلى حكومته على لسان سفير بريطانيا
 فى باريس. ولكن لم تضطر بريطانيا إلى تكرار الشكوى، فإن
 ديلسبس لم يفعل شيئاً جدياً لمنع خرق هذا الحياد ، ولأن
 الأسطول البريطانى احتل مدخل القناة عند السويس وبورسعيد
 بقيادة أمبرى البحر هوت وهوسكن فى التاسع والعشرين من
 يولية سنة ١٨٨٢ أى بعد وصول ديلسبس إلى الإسكندرية بعشرة
 أيام ، وفى ٢ أغسطس أنزل الأسطول البريطانى جنوداً إلى البر
 فاحتلوا السويس .

ويقول عرابى فى مذكراته إن ديلسبس أرسل إليه فى ١٤
 يولية يسأله عن رأيه فيما يخص القناة فى العمليات الحربية، فأرسل
 إليه عرابى يقول إنه لن يتعرض للقناة ، إذا نجح فى منع مراكب
 الإنجليز من خرق حيادها . فرد ديلسبس فى اليوم نفسه ، بأنه
 ضامن ومتكفل بمنع الإنجليز من اختراقه ما دام فيه عرق ينبض .
 وقد عاش ديلسبس ، وبقيت كل عروقه تنبض بعد أن احتل
 الإنجليز السويس ، وأنزلوا فيها جنودهم ، ولم يفعل شيئاً ، ولم
 يكن فى واقع الأمر يهمل من الأمر إلا أن تبقى القناة سليمة ،
 ما دامت حكومته لا تبغى أكثر من ذلك ، ولا تفكر فى أن

تقاسم الإنجليز السلطان في مصر ، أو تمنعهم عنها .
ولم تفعل إنجلترا لتخرق حرمة القناة ، أكثر من أن تذيع
عن طريق سفاراتها في مختلف عواصم أوروبا ، أن المصريين
بدأوا يقيمون طوابق وتحصينات في غرب القناة ، ولكنها لم تكن
في حاجة إلى بذل مجهود جدي لإقناع الدول بأن خطراً يهدد
القناة بعد أن ضربت الإسكندرية في ١١ يولية ، على مرأى
ومسمع من الدول جميعاً فلم تتدخل دولة واحدة في هذا الأمر ،
أو تحتج عليه ، أو تمنع بريطانيا من مواصلة سياستها التي
كشفتها هذا العلوان . كانت كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا قد
قررت نقض يدها من قضية مصر ، وتركت بريطانيا حرة تفعل
ما تشاء . فهل كان عرابي محقاً في أن يخشى الرأي العام العالمي
إذا هو أقدم على ردم القناة ؟

والحق أن هذه القضية ، قضية الرأي العام العالمي ، من
الأوهام التي احتلت قنراً كبيراً من تفكيرنا السياسي منذ قامت
الثورة العرابية حتى هذه الأيام ، وأصبح من المتعين علينا أن
نحلل هذه القضية إلى عناصرها الأصلية ، حتى لا نتعرض
بسببها للضياع أو الخسران .

ويجب أن نثبت أولاً : هل هناك فعلاً ما يسمى الرأي
العام العالمي ؟ وبغير تردد ، أقول لأخي المواطن إنه موجود فعلاً ،

ولانه غير موجود أصلاً . . . غير موجود لأن العالم لم يكن في يوم من الأيام معسكراً واحداً. فالمعسكرات الدولية المختلفة ، تخلق داخلها آراء عامة بطريق الصحافة وما تروجه من أفكار ومعلومات وإحصائيات . ولذلك فالمشكلة الواحدة ، ينظر العالم إليها من أكثر من زاوية. وما يعتبر جريمة في معسكر ، يعتبر عملاً وطنياً في معسكر آخر ، ويعتبر عملاً لا يستحق التعليق في معسكر ثالث ، ولا يسمع به إطلاقاً أهل معسكر رابع . ولكن يحدث أحياناً أن تقوم حرب دعاية بين معسكرين ، وحول موضوع معين ، فينجح أحد المعسكرين ، في غزو المعسكر الثاني ، بنشراته وصوره ، وإذاعاته ، وأحاديثه ، فيبدو أن العالم قد انحاز إلى الرأي الذي يمثله هذا المعسكر ، فالرأي العام العالمي ، هو من خلق وصنع بعض رجال السياسة . هم وحدهم الذين يخلقونه . ثم يلونونه باللون الذي يعجبهم ، ويوجهونه إلى الوجهة التي تروقهم . ولذلك فإن تحدى هذا الرأي العالمي ، لا يخيف إذا كانت الدول التي تخلقه غير مستعدة لأن تقوم بحرب من أجل الدفاع عنه . وفي تاريخنا الحديث أمثلة كثيرة ، فقد ثار الرأي العام في فرنسا على اتفاق هور ولافال على تقسيم الحبشة بين فرنسا وإيطاليا ، ولكن موسوليني احتل الحبشة ، ولم ينفع هذا الرأي العام في رد جندي واحد من جنوده . وقد كان الرأي العام يعتبر إسبانيا فاشستية ،

عاونت مع هتلر ، ولم تشترك في الحرب ضده ، وصدرت قرارات
من هيئة الأمم بقطع التمثيل السياسى بينها وبين الدول الأعضاء
، هذه الهيئة ، ولكن ذلك لم يمنع التعاون بين إسبانيا وبين الدول
لديمقراطية من أن يزداد ويتوثق . وقد كانت ألمانيا منبوذة ،
أصبحت صديقة . وقوتها العسكرية تبنى بأموال الدول التى
احتلتها وقررت نبذها .

فالرأى العام الذى تخلقه المصلحة هو رأى عام متقلب ،
لا يحترم إلا الأقوياء ، ولا يعرف إلا الأمر الواقع ، فإن كنت
زانيا ، تعرف مصلحتك ، وتحسن انتهاز الفرص المحققة لها ،
غير محتفل بقيد من قيود الأخلاق أو العرف ، فأنت صديق
هذا الرأى العام العالمى ، مهما حكم عليك فى الماضى ، أو
تجهم لك ، تجهماً يبدو أنه يخفى قطيعة أبدية .

فالرأى العام العالمى ، يلعن الأميرال سيمور الذى يضرب
مدينة الإسكندرية العزلاء فى ١١ يولية ، ويعتبر عمله إجراماً ويؤلف
عن ذلك الإجرام كتباً ، تتراحم فى سطورها الأدلة المثبتة
للجريمة ، ولكن هذا الرأى العام نفسه حينما ينجح الأميرال سيمور
ويحتل مدينة الإسكندرية ثم يحتل الجزائر ولسلى زميله مصر ،
يعترف به وبزميله ، ويتعامل معهما ، ويغض عينه وهو يرى
أحمد عرابى مسوقاً إلى المنفى ، متهماً بالجرائم الغلاظ .

ولكن إلى جانب هذا الرأي العام المغرض ، الذى لا ضمير له ، يوجد رأى عام إنسانى ثابت مستقر ، يعرف العمل الصالح ويميزه عن العمل الطالح ، ويصدر على كل منهما الحكم الذى يستحقه ؛ ذلك هو رأى الناس المجرد عن الهوى .

ولكنه للأسف رأى لا يلعب أى دور فى عالم السياسة ، ولا وزن له فى توجيه أحداثها ؛ لأنه رأى العامة المتفرقين فى أنحاء العالم ولأنه لا يملك الوسيلة للتعبير عن نفسه .

هذه هى حقيقة الرأى العام العالمى ، فماذا كان يفعل هذا الرأى العام العالمى فى أحمد عرابى ، لو أنه ردم قناة السويس ؟ هناك فرضان ، لا ثالث لهما فى هذه المسألة ، أولهما أن يردم المصريون قناة السويس ، ثم يردون الإنجليز على أعقابهم وتستقر الأمور فى أيديهم فى الداخل . فى هذه الحالة ، لا يفعل الرأى العام إلا أن يضفر أكاليل الغار على رأس أحمد عرابى وتتألب دول أوروبا على إنجلترا لأنها جميعاً تضررها الكراهية والحسد ، ولأنها وإن كانت قد نقضت يدها من قضية مصر ، فإنها لم تفعل ذلك زهداً فيها ، ولا انصرافاً عنها ، بل خوفاً من تبعاتها وعجزاً عن منافسة إنجلترا ، فى مواجهة الأخطار ، والتهيؤ لها مالياً وعسكرياً . فلم تكن فرنسا ولا تركيا ولا إيطاليا تمنى أن تزيد رقعة بريطانيا ، ولا أن يتسع نفوذها ،

ولم تكن ألمانيا، تود ذلك ، ولكنها ترى في السكوت على نشاط بريطانيا في مصر أن تتسع الهوة بين فرنسا وإنجلترا ، وفي السياسة ، كما في كل شيء آخر ، يصدق قول الشاعر :
والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل
فعرابي مجرم يهدد أمن مصر ، إذ لم يتنصر ، ولكنه حينما يطرد الإنجليز وينجح ، يصبح بطلاً وطنياً ، ويصبح ردم القناة عملاً يمكن علاجه ، لاسيما أن ردم القناة شيء وتعطيل الملاحة فيها إلى الأبد ، وأضاعه مصالح حملة أسهم القناة فيها شيء آخر .
أما الفرض الثاني ، وهو أن يحاول أحمد عرابي ردم القناة فلا ينجح فيه ، أو ينجح فيه ، ولا ينجح في رد الإنجليز عن البلاد فدعاقته نفس العاقبة التي ختمت بها أعمال عرابي ، حينما هزم في التل الكبير .
فلا دفاع ينهض عن خطأ أحمد عرابي ، في عدم ردم القناة ، والأساطيل الإنجليزية تنحدر منها ، وتصعد فيها لتحتل بلاده . البلاد التي جرى دم وعرق أبنائها مجرى القناة قبل أن تفتح . البلاد التي احتملت في سبيل هذه القناة من الويلات والمصائب ، وأنفقت في سبيلها من الأموال والجهود ، ما لم تبذله أمة أخرى في عمل يعود نفعه على الناس أجمعين أكثر مما يعود عليها أو على أبنائها .
والرأي الذي نقول به نحن اليوم في صدد هذا الخطأ قال به

المعاصرون لأحمد عرابي من المصريين والاجانب الذين كانوا يعجبون به ، والذين لم يدخروا وسعاً في الدفاع عنه . فالكاتب السويسري جون نينه يقول « إن عرابي رفض فكرة سد القناة ، وتمسك برأيه على الرغم مما تقضى به الخطط الحربية والفنية ، وعلى الرغم مما ذهب إليه زملاؤه وما ذهبت إليه وكررت له تارة بشديد الكلم وتارة بالكتابة . على الرغم من ذلك كله ظل عرابي على رأيه ، يمهّد للجنرال ولسلي نصراً من أسهل ما عرف في تاريخ الحروب » .

والثابت أن محمود فهمي باشا الذي أقام تحصينات كفر الدوار المنيعه ، التي نجحت في رد الإنجليز في الميدان الغربي ، قد نصح عرابي مراراً بتحسين الميدان الشرقي ، وبسد القناة . وليس من الممكن الجزم بأن دسائس الحديو، ورشاويه ، ودعاة الفتنة ، والساعين بالوقيعه ، ومال الإنجليز ، وخيانة من خانوا — ليس من الممكن الجزم بأن ذلك كله كان سيؤدي إلى هزيمة الجيش المصري في الميدان الشرقي ، لو أن قادراً معقولاً ، من التحصين ، أقم في هذه الناحية ، ذلك لأن أسباب الهزيمة غير المشروعة ، دائماً لا تفرخ ، إلا حيث تجد الجو المناسب لها ، من التخاذل والإهمال والتفريط في الواجب ، وقد وجدت ذلك كله في الميدان الشرقي .

ويقول الشيخ محمد عبده، إن أحمد عرابي كان يتصور أن
مس القناة « سيهيج عليه جميع الأمم » ، فصر ذهبت ضحية
فهم غير صحيح ، للسياسة الدولية من جهة ، وإلى تفريط من
جهة أخرى. فإن عدم ردم القناة لا يستتبع أن تترك مصر من
الناحية الشرقية ، بلا أى نوع آخر من الاستحكامات.

* * *

لقد رأينا كيف أحلنا أحمد عرابي ، مكانه العظيم اللائق به
في تاريخ مصر ، وفي تاريخ كفاحها ؛ لكن من حق مصر على
عرابي ، ومن حق تاريخها علينا ، ولا سيما أننا نستخلص منه
العظات والدروس لتسلح بها للمستقبل : أن نقول إن أحمد عرابي
أخطأ هنا خطأ لا ينفع فيه دفاع ، وإن كان يشفع له فيه أنه كان
رجلاً أميناً سليم النية أخذ العهود والمواثيق الإنسانية مأخذ الصدق ،
فقد خفيت عليه حقائق السياسة الدولية بأقذارها ، وأحاييلها ، فسرى
في وهمه أن بريطانيا لا تجرؤ أن تلوس حياد القناة ، كما تخيل
أن ديلسبس قادر على أن يحمي القناة .

فليفهم أحفاد عرابي ، من أبناء مصر ، أن الحق الدولي
وحده ، لا ينفع ما لم تعززه القوة المادية ، وما لم يؤكدده استعداد
الشعب للدفاع عنه .

أخى المواطن :

قبل أن يقع الاحتلال البريطاني لمصر في سبتمبر سنة ١٨٨٢ بثمانية أعوام ولد في حي متواضع من أحياء القاهرة ، لضابط مهندس ، ولد ، كان ميلاده ، الوجه الآخر ، لحالة مصر ، في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنين الأولى من القرن العشرين .

والحق أن الإنسان ليتصور ، وهو يقرأ تاريخ مصطفى كامل أنه كان على موعد مع الاحتلال البريطاني ، فإنه ما كاد يبلغ سن الشباب المبكر ، سن الخيال المشبوب والإحساس المرهف ، والإيمان بالمثل ، والتجرد عن المصلحة ، حتى وقع الاحتلال . ولا نحسب أن مصطفى كامل كان قادراً أن يسلك في مناجزة الاحتلال ، ومقاومته وإثارة الناس عليه والتشبيب بمصر ، وجمالها ، وتاريخها ، والإشادة بمفاتها ومفاخرها ، المسلك الذي اختاره ، لو أن مصر نكبت بالاحتلال وهو في فترة متقدمة ، أو متأخرة عن السن التي بلغها ، حينما وافت سنة ١٨٨٢ . ولقد كانت مصر

في أشد الحاجة إلى شاب ، ليوقظ فيها شبابها ، فقد كان كل شيء فيها ، عند ما وقع ذلك الاحتلال البغيض ، غارقاً في القدم متحللاً تحلل الشيخوخة والهرم . كانت الأمور والعقائد والأفكار والأساليب والأدوات كلها متخلفة عن الزمن تخلفاً لا ينفع في رد الأحداث ، أو في تخفيف وقعها ، وكانت الحضارة التي التي تغزو مصر وتغزو معها الشرق الغربي ، حديثة غاية الحداثة ، فإنه لم يكن قد انقضى على تسخير البخار ، في بناء هذه الحضارة إلا سنون لم تبلغ نصف قرن ، ولم تكن الكهرباء ، ومنتجاتها ، قد عرفت بعد ، أو عرفت على نطاق واسع ، ومن هنا كانت حضارة في طور صباها ، فلم تلق إلا قدماً متداعياً ، وماضياً متلكئاً ، فلو لم تسق الأقدار مصطفى كامل ، لكانت الكفتان غير متكافئتين إطلاقاً ، ولكن مصر ، التي كانت تعيش أكثر حياتها ، على مدى السنين ، على ما يشبه المعجزات ، وخوارق الأمور ، لم تخرج عن سننها المألوف ، فأخرجت في الوقت المناسب مصطفى كامل . ولا نعرف قلر مصطفى كامل على حقيقته إلا إذا أدركنا أنه منذ اللحظة الأولى عرف ماذا يطلب من بلاده ، وماذا يطلب من أعدائها الغاصبين . طلب من الإنجليز الجلاء ، وطلب من أهل وطنه أن يثقوا من أن هذا الجلاء واقع ، لا محالة .

وقد يقول قائل : وأي غرابة في أن يطلب الزعيم من أعداء الوطن ، أن يجلوا ؟ والحق أنه لا غرابة في أن نتصور اليوم ، أي بعد اثنين وسبعين عاماً من وقوع الاحتلال ، أن الشيء الطبيعي الذي لا يتصور غيره ، أن يطلب أبناء الوطن المعتدى عليه من عدو بلادهم المعتدى ، أن يترك لهم وطنهم . ولكن للاحتلال والهزائم صدمة ، تذهل لها الشعوب عما يجب ، فتضطرب ويسوء فعلها كما يسوء قولها ، وتقع فيما لا تفره أو ترضاه حينما تثوب إلى عقلها .

وقد حدث بالفعل ، أن نظر كثير من الناس أول الأمر ، إلى دعوة مصطفى كامل كما ينظرون إلى من فقد بعض عقله . وإني لأذكر أن المرحوم « ع » باشا ، بعد وفاة مصطفى بأكثر من أربعين عاماً ، وبعد أن غلبت الروح الوطنية على الأمة ، قال لي في غير ما تخرج ولا تأثم ، إنه قابل مصطفى كامل على محطة حلوان في ذات يوم ، فدعاه إلى الانضمام إلى الحزب الوطني ، أو إلى جماعة الوطنيين وأن عبد العزيز باشا قال لمصطفى كامل : ابعد عني . . . الله يحسن عليك . .

وقد أردف هذا بإشارة من يده ، وأخرى من عينيه ، معناها أن عقل صاحبنا كان خفيفاً .

ولقد بقي هؤلاء العقلاء ، خصوماً للحركة الوطنية لا عن

خيانة وإنما عن نقص في الخيال، وفي الحرارة، واختلال في غريزة الكفاح عندهم، وقد كان من الممكن أن يتقدم أحدهم صفوف الحركة الوطنية، في أعقاب الاحتلال البريطاني، فيبتلى الوطن، بأكثر من الاحتلال نفسه. وقد حدث شيء من هذا، في تاريخ الأمم الأخرى، فقد سبق غاندى زعيمان أحدهما كوجهاً والثاني تيلاك، فلم يستطع أحدهما أن يجمع الشعب الهندي كله، حول زعامته، مع أن أحدهما كان خالياً من العصبية الطائفية، إلى درجة تخيف أبناء دينه، وكان الثاني متطرفاً، في هذه العصبية إلى درجة تخيف أبناء الدين الآخر، وكان يعوز كلاهما هذا الخيال المملود، وهذه الحرارة المتجددة وهذا التجدد المستمر الذى كان لغاندى، ومن ثم تأخرت الحركة الوطنية حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في سنة ١٩١٨.

وقد كان مصطفى كامل في رأى خصومه، خيالياً، متطرفاً وقد كان هذا عين ما تحتاج إليه مصر، بعد صدمة الاحتلال البريطاني، فقد أعانته خياله على أن يرى مصر، بعد سنين طويلة. ولو لم يمتد نظره إلى مصر المستقبل البعيد، لما استطاع أن يدعو أحداً إلى المقاومة، ولما لبى دعوته أحد. فقد كانت الديون قد بلغت في إرهاب الفلاحين وأصحاب الأقطان، إلى حد

لم يكونوا قادرين بعدم، أن يفكروا في مقاومة ، أونضال ،
 خصوصاً بعد أن أضيف إلى هذا الإرهاق خيبة الأمل الناجمة من
 هزيمة التل الكبير ، وقد كان الجميع في حاجة إلى فترة
 من الاستجمام ، فلما بدأ الاحتلال يدخل التنظيمات البدائية التي
 أدخلها على أداة الحكم ، كانت مظهراً من مظاهر النظام بدا
 أنه شيء عظيم في أعقاب الفوضى التي أشاعها حكم إسماعيل
 وظلمه وإسرافه ، مع أنها كانت البداية التي حددها الاحتلال
 لإقامة الحواجز بين الحكومة والشعب ، وجعل أداة الحكم جهازاً
 خاصاً بالأجانب والأغنياء .

ولا يظن أحد الظنون بالمعنوية المصرية ، فيزعم أن الشعب
 المصري ، انفرد وحده دون غيره من الشعوب باليأس والاستسلام
 عقب الهزائم ، فالشعب الأيرلندي بعد أن قام في ثورة مسلحة
 ضد الإنجليز في أواسط القرن الثامن عشر ، كره كل من يدعوه
 إلى المقاومة ، ولذلك اضطر زعماء الشين فين في القرن التاسع عشر
 إلى التحايل للوصول إلى قلب الشعب ، فبدأوا حركتهم بالدعوة
 إلى بعث اللغة الأيرلندية التي اندثرت ، والآداب الوطنية التي
 طمرت ، وإلى تجديد الغناء والرياضة القومية ، وقد اجتمع
 الوطنيون أول ما اجتمعوا في أندية الرياضة ، ومدارس اللغة
 القومية ، وفي حفلات التمثيل ، قبل أن يجتمعوا في ساحات التدريب

العسكري ؛ وقد تعارف المجاهدون الشبان ، كرواد للأدب الأرندي وكأبطال في الرياضة البدنية قبل أن يتعاونوا كجنود وكمقاتلين .
ولقد وصل مصطفى كامل إلى قلب الشعب المصري ، من أيسر السبل ، وهو سبيل الحديث عن الماضي ، والتغنى بجلائله ومفاخره ، فإن المصري شديد الحب لماضيه وشديد الحماسة له ، عظيم الإقبال على الحديث عنه ، وقد عزز هذا بالتغنى بجمال مصر ، وفي المصريين ميل إلى هذا الحديث ، لأن عامتهم قبل خاصتهم ، يتناقلون عبارات كجوامع الكلم فعامتهم يقولون « إن مصر أم الدنيا » وخاصتهم يقولون « مصر كنانة الله في أرضه من أراد بها سوءاً قصمه الله » .

ولقد كان أسلوب مصطفى كامل آية في السهولة ، واليسر ، خالياً من المحسنات اللفظية ، ومن الحمل الاعتراضية ، ومن الأفكار العميقة ، تسوده حماسة متدافعة ، تربط ألفاظه ومعانيه بقلب الإنسان قبل عقله ، خذ مثلاً هذه القطعة عن مصر :

« ألا أيها اللاثمون ! انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً وأسمى شأنًا ، وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصنى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ »

« اسألوا العالم يجبكم بصوت واحد أن مصر بجنة الدنيا وأن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمته لأجنبي .
« إني لو لم أولد مصرياً ، لوددت أن أكون مصرياً » .

ولقد جرت هذه الفقرة الأخيرة على الألسن ، وحفرت في الأذهان ، وأصبحت شعاراً ذائعاً وهي إحدى العبارات التي قصد مصطفى كامل بها ، إلى تحقيق غرضين : الأول الإعجاب بمصر ، والثاني الثقة بمستقبلها .

ولقد اشتدت حملته ، بنفس الأسلوب على الناس ، فصور للأمل صوراً جميلة أخاذة ، وصور للناس ، صوراً دميمة كالحلة فقال :

« إن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن ، وجعلت مهمتها في الأمة تشييط الهمم وإقعاد العزائم فلا تنادي في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً . وترى رجال هذه الفئة اليائسة يتهمون كل رجل ينادى بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر . وعندي أن الرجال اليائسين وأن كانوا أقل من القليل

يضررون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه .

ثم قال في موضع آخر :

« وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا دائماً قول جامبتا الشهير : ليس المستقبل بمستعص على أحد » .

ولقد كان من خصائص مصطفى كامل ، أنه خطيب وكاتب معاً ، وأنه هو هو في حالتي الكتابة والخطابة . فحديثه في الحالين خطاب إلى قلوب الناس وعواطفهم ، وإثارة لحياتهم ، وإيقاظ لآمالهم ، وتهوين لمتاعبهم ، واستحثاث لكامن قواهم ، والهادي الحامد من عناصر قوتهم .

ولقد حدثني من أتيت له فرصة سماع خطب مصطفى كامل ، عن عظيم تأثيره في السامعين ، فقال إنه أقرب إلى تأثير الفنان ، منه إلى تأثير رجل السياسة ، فالسامعون باد عليهم عميق الحب للخطيب ، والاستمتاع بصوته وشكله ، وشبابه ، وهم يتذوقون حلاوة صوته ، وعذوبة لفظه ، وكأن الغاية من الاجتماع به ، هو الإنصات إليه ، ثم الانصراف بعد ذلك ، كما ينصرف رواد المسرح ، ولكنهم حيناً يثوبون إلى دورهم ، يحسون أن شيئاً جديداً قد دب إلى حياتهم ، وأن نظرهم إلى الأمور قد تغيرت ، فشؤون الأمة والدولة ، وعلاقات الإنجليز بالحديو ، وعلاقة

الحديث بالشعب ، تبدأ في الاستئثار باهتمامهم مقترنة بتحمل من الاحتلال وقوة قبضته ، ومن تدخل المستشارين في شؤون التعليم والمال والإدارة ، وهكذا دواليك حتى أصبح الإعجاب بمصطفى كامل الخطيب ، كراهية للاحتلال ، والكراهية للاحتلال ضيقاً به ، والضيق به سخطاً عليه ، وهكذا أصبح مصطفى كامل رمزاً على فكرة وطنية ، استحوالت مع الزمن إلى عقيدة ، والعقيدة أصبحت حافزاً للنضال الذي بدأ بينا وبين الإنجليز .

لم يكن ينقص المصريين بعد هزيمة التل الكبير ، إلا أن يستعيدوا حب النضال وأن تتحرك فيهم غريزته . وأن يدعوا الاستسلام للهزيمة ، والرضا بها ، واليأس من تغيير نتائجها . وقد نجح مصطفى كامل ، في أن يوقظ هذه الغريزة ، لأنه قطع كل ما يمكن أن يقوم بين الاحتلال وبين الشعب ، من أسباب التفاهم أو التلاقي أو المصاحبة : أبرز الاحتلال ، في ثوبه الحقيقي ، فعرف كل مصري أنه العار ، وأن الشرف والعار لا يتجاوران ولا يتهادنان ، ولا يتفاهمان ، ولا يتقاسمان شيئاً واحداً ، ولا أرضاً واحدة ، ولا يتنفسان في هواء واحد ، أو يتغذيان من طعام واحد .

هذه جملة حياة مصطفى كامل ، وخلاصة زعامته وسر خلوده .

أخى المواطن :

ما الذى كان يفعله مصطفى كامل ، كل عام ؟
 أكان يتجول بين عواصم أوروبا : باريس وفيينا وبرلين
 وروما ، يوزع خطبه اعتباطاً ، على المحافل والنوادي ، ويوزع
 مقالاته على الصحف والمجلات ، بلا حساب ؟ إن بعض الذين
 يعرفون ظاهر حياة مصطفى كامل يتصورون أنه كان يفعل شيئاً قريباً
 من هذا ، أى أنه كان يحسن الكتابة والخطابة والحديث بالعربية
 والفرنسية ، وأن ذلك أعانه على أن ينتقل بين العواصم ، داعياً
 لمصر ، مشيداً بأهميتها ، مندداً بالاحتلال وهذا أبعد شئ عن
 الواقع .

فالدعاية ليست مجرد كلام منطوق أو ملفوظ ، أو لعلها
 كذلك إذا كانت دعاية داخلية ، تجرى فى البلد الواحد ،
 ولكنها حينما تكون دعاية دولية ، إنما تعتمد أول ما تعتمد على
 تحرى مصالح الدول والمعسكرات ، وهذا يجرنا إلى مثل الكلام
 الذى قلناه عن رأى العام العالمى ، حينما تحدثنا عن موقف عرابى
 من قناة السويس وسدها أثناء محاولة الإنجليز احتلال مصر .

فالدعوة التي توجه إلى أصحاب الرأي والمفكرين يجب أن تختلف عن الدعوة التي توجه إلى رجال السياسة وأصحاب المناصب وكلاهما يختلف عما يوجه إلى النواب خصوصاً إذا كانوا من الأحزاب المعارضة للحكومة القائمة في بلادهم .

وينحطى من يظن أن الداعي قادر على أن يحقق شيئاً للبلاد إذا هو نزل في بلد من البلاد ، فطبع كتباً ، ومنشورات ، وحلها بالصور ، والأرقام ، ووزعها على الناس . فإن الرأي العام في معناه العام ، لا يفعل شيئاً ، ولا يملك شيئاً . فمن الحبل أن يتصور مثلاً أن كل بريطاني ، أو أن أكثرية البريطانيين مشغولون بمشكلة احتلال بريطانيا لمنطقة القناة ، أو أنهم يتابعونها ويقرأون أنباءها . ومن الحبل أن نتصور أيضاً أن كل أمريكي يعرف مشكلة إسرائيل ، ويهتم بها ، ويعرف أصل النزاع ، بين إسرائيل والعرب . فالواقع أن للفرء العادي في البلد المتمدين من الهوايات ، والمشاغل ، والمشاكل ، ما يبعده عن شئون السياسة عموماً ، وشؤون السياسة العالمية خصوصاً . ولو أردنا أن نلمس في نفوسهم الأوتار الإنسانية ، ليؤثروا في الانتخابات العامة ، فإننا نكون أقرب الناس إلى من يحاول حفر بئر ، بسن إبرة ، ذلك لأن تحقيق هذا الهدف يقتضينا من الزمن وحده سنوات وسنوات . فما الذي كان إذن يميز مصطفى كامل كداعية ؟ وما الذي

رفع قدره في حلبات السياسة الدولية ؟

بدأ مصطفى كامل حياته السياسية الدولية ، بدءاً صحيحاً ، فقد درس الاحتلال البريطاني كمشكلة دولية ، فتوافر على تحرى آثاره ، على مصالح الدول الكبرى ، التي تتظاهر بعضها بصداقة الإنجليز ، والتي يجاهر بعضها الآخر بمخاصمتها وعداوتها . وقد بدأ إنتاجه السياسى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٥ ، بإخراج كتيب صغير، هو خلاصة فهمه للدعاية السياسية فعلاً ، وقد عنون هذا الكتاب « أخطار الاحتلال البريطانى » .

نعم ، هذه هى نقطة الابتداء .

أخطار الاحتلال البريطانى ، فيما أن يكون للاحتلال البريطانى خصوم بين الدول والسياسة وأصحاب الصحف وقادة الرأى ، فيكون للدعاية مبرر ، وإما ألا يكون له شىء من ذلك ، فلا تقع من الكلام .

وهو حينها بدأ يوزع هذا الكتيب ، لم يقنع بأن يتم هذا التوزيع اعتباطاً ، بل قصد أن تصل هذه الرسالة إلى أيد معينة من بين رجال السياسة وأهل الرأى ، وكان فى مقدمة الذين أرسل إليهم ، السيدة جوليت آدم . ذلك لأنها كانت عدوة لسياسة الانسحاب والتراجع التى سارت عليها فرنسا أمام إنجلترا وعدوة بصفة خاصة لإنجلترا . ولذلك تلقىها بسرور ، واحتضنت

صاحبها، وأفسحت له مكاناً في صالونها العظيم الذي كان يضم الساسة ورجال الفكر والقواد العسكريين والأدباء . فتعرف مصطفى كامل بفضلله على النائب ديلونكل ، وعلى الشاعر الشهير بيرلوتى وعلى الكولونيل مارشان بطل حادثة فاشودة والكاتب أرنست حوديه وغيرهم وغيرهم من ذوى المكانة والحيشية .

ولعلنا نفهم ماذا تكون الدعاية ، إذا تأملنا في المقدمة التى قدمت بها جريدة الإكلير الفرنسية الشهيرة لحديث مصطفى كامل معها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، قالت الجريدة :

« ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر ، قررت إلغاء البعثة المصرية فى فرنسا ، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى مصطفى كامل وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها » .

فالجريدة ، لم تقصد مصطفى كامل تشجيعاً له ، ولكن للانتفاع بصوته وقلمه فى مسألة تهم فرنسا ، وتضايق إنجلترا . وهذه المسألة الصغيرة ، ليست إلا أنموذجاً لكل مسألة أخرى كبيرة تهم السياسة والساسة .

فمصطفى كامل ، كما كتب لأخيه المرحوم على فهمى كامل

فى مايو سنة ١٨٩٥ ، كان يقضى ليله ونهاره فى مخالطة كبار السياسيين : « لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية ، وطرحها على بساط المناقشة من جديد » .
ولقد حاول كثيرون بعد مصطفى كامل أن ينزلوا إلى ميدان الدعاية السياسية المصرية ، أو أن يتكلموا فيها ، ثم فتح هذا الباب على مصراعيه ، حينما وقعت كارثة فلسطين ، وأحس العرب ، بحاجتهم إلى تنظيم الدعاية ، فى أمريكا وأوروبا ، وشحذ سلاحها وتجميع العاملين فى ميدانها وتنسيق الجهد بينهم . وكان مصطفى كامل دائماً ، مثلاً يتجه إليه الدارسون والمقلدون ، بأنظارهم ، لعظم النجاح الذى حققه . ولكن كان يغيب عن الدارسين ، والراغبين فى التقليد ، الأمور الرئيسية التى أشرنا إليها ، فيما تقدم ، وأمور أخرى لا بد منها لنجاح الدعاية .

وأول هذه الأمور بلا مرأى هى المغامرة ، فمصطفى كامل كان يسافر كل سنة إلى جميع عواصم أوروبا أو إلى أكثرها ، أو إلى باريس على الأقل . فكان رصيده من الصداقات والمعارف ومن الاتصالات ، يزداد يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة . فكان من الميسور عليه ، كلما وقعت أزمة ، أن يجد المحبين والعاطفين والمؤيدين . فلم تكن دعاية موسمية ، تقع حينما تمر

بالبلاذ ، محنة ثم تنقطع .

وثانى هذه الأمور أنها كانت ثمرة الاتصال الشخصى ، بعد تحرى المصلحة الدافعة للدولة التى يدعو فيها ، أو السياسى الذى يستعين به . فلم تكن وسيلتها الوحيدة ، المال المبذول . ولم يكن أعوان مصطفى كامل أجراء يدفع لهم المال . لشراء أقلامهم أو ذممهم ، بل كانوا من أصحاب العقائد الذين تلاقت مصلحة بلادهم أو أحزابهم مع مصلحة مصر ، ومع جلاء الإنجليز عنها . وثالث هذه الأمور ، هى أن الدعوة التى كان يقوم بها مصطفى كانت عامة ، فلا تعتمد أبداً على الفرنسيين دون الألمان أو الطليان أو الأتراك أو حتى الإنجليز ، ولذلك كانت القضية المصرية ، دولية بحق ، فقد شغل بها كل محفل دولى ، وعرفها نواب ألمان ونمساويون وطيان ، وتحمس لها كتاب ومفكرون من كل جنسية .

ورابع هذه الأمور ، أن الأمر لم يكن دعوة صرفة ، فقد كان لنشاط مصطفى كامل الداخلى ، وتنظيمه الجبهة الوطنية ، وإنشائه جريدة اللواء ، والمجلات الأخرى الأسبوعية والشهرية ، ودفع الحركة التعليمية ، والدعوة إلى إنشاء الصناعة ، وتبلور رأى العام الوطنى ، وتجميع الشبان والمثقفين حوله . . كان لكل ذلك أثر فى رفع قدر دعوة مصطفى كامل فى الخارج ،

فقد كان إحساس رجال السياسة، في المحافل الدولية، أن هذه الدعوة، هي دعوة حركة خيرية إيجابية، تنمو وتزدهر، في وادى النيل. وأن مصطفى كامل هو لسانها المعبر عنها، فالاحتفاء به والإقبال عليه، هو كسب دولي.

ولكن مصطفى كامل لم يكن يقصر دعوته على مجرد الخطابة، بل كان ينتفع بالخلافات الدولية، في خدمة بلاده، ومن هذه الأمثلة، انتفاعه بالتنافس بين الاستعمارين الفرنسي والإنجليزى على استعمار أفريقيا، والتوسع في بسط النفوذ على مجاهلها، فقد كان يرجو أن يؤدي هذا التنافس إلى الاصطدام بينهما اصطداماً يؤدي إلى إجلاء الإنجليز عن السودان. وقد حدث هذا التصادم بالفعل في سنة ١٨٩٨ عند فاشودة، وكادت القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل مارشان، تصطدم بالقوات الإنجليزية بقيادة كتشتر، ولكن فرنسا كعادتها، كلما التقت مع إنجلترا، خصوصاً، بعد هزيمة نابليون في واترلو، لا تلبث أن تحنى رأسها وتنسحب. ولم يتأخر مصطفى كامل في أن يبدى ألمه وخيبة أمله في السياسة الفرنسية عند أقرب الناس إليه من الفرنسيين - كدام جوليت آدام - كلما قضت المناسبة، فقد كتب يقول لها من فينا في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ :

« إن الإنجليز يعملون في وادى النيل كل ما يريدون .

ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل . ويسخرون أكبر
 سخرية من أوروبا وعلى الخصوص من فرنسا لأن خطة فرنسا في
 هذه الأزمان الأخيرة قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا
 ظلماً أشد مما كان . والذي زاد الطين بلة أن هذه الخطة التي
 كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلدكم
 الحميل الكريم . وفي الواقع إن سياسة فرنسا تظهر بمظهر من
 يريد كل شيء أو لا شيء .

وقال لها في خطاب آخر من بودابست ، في ٢٨ يولية سنة

: ١٩٠٠

« اعتقدى أنى إذا ذهبت كل عام إلى باريس فلأراك
 « أنت الوحيدة التي تمثلين أمام عيني فرنسا القديمة . فرنسا ذات
 « الهمة والإقدام . إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل
 « جوارحى المدنية الحديثة ، ولكن السياسة الفرنسية تعكس
 « أمرى وتجعلنى ذاهلاً أمام التناقض الغريب المسطور في
 « تاريخها . عجباً أنسيت فرنسا فاشودة ؟ ! »

« إن سياسة الحكومة الفرنسية لم تعمل عملاً واحداً يجعلنى آملاً
 « فيها ، إنك كنت تذكرين لى مرشان فى خطابك ، فلا
 « بد أن يتألم الآن أشد الألم من السياسة الفرنسية ؛ وماذا
 « عسى أن يقول عن البوير . »

« إن اعتقادی الحصوى أنه سينصب لأوروبا فى الصيد
 « أشراكاً ، تندم عليها بكل تحسر . فقد حارت
 « ألمانيا فى سياستها بالشرق الأقصى ، وهذا المرض الذى
 « ابتليت به أوروبا وهو ورغبتها فى امتلاك كل شىء فى
 « الوجود سيعود عليها بالوبال ، وإن الأنباء تحدثنا اليوم
 « بالاتحاد الأوروبى فى الصين ، والارتباط الوثيق بين
 « القوى الأوروبية ، فإيا له من عار ! أما كان ينبغى أن
 « يكون هذا الاتحاد وهذه الرابطة فى مسألة الترسفال ، فأين
 « شرف أوروبا من اتحادها وشهامتها أمام الصين وانقسامها
 « ووجلها أمام إنجلترا ؟ » .

« ولما اتفقت إنجلترا مع فرنسا على تقسيم شمال أفريقيا بينهما
 فى سنة ١٩٠٤ كتب لها يقول فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٤ :
 أساء إلينا مسيو ديلكاسيه (وزير خارجية فرنسا) كثيراً
 باتفاقه الإنجليزى الفرنسى ، لأن تعهد فرنسا بعد مطالبتها بالحلأ
 دفن المسألة وحكم علينا من قبلكم . وقد كتبت إلى مسيو
 مونتور جويل رأى لينشره كحديث على بعد المزار ، فإذا كان قد
 نشره فأرجو منك أن تلتقى إليه نظر درديون ، وروشطور ودوديه
 وجميع أصدقائك لأنى أريد أن يقف الفرنسيون على التأثير الذى
 أحدثه عندنا هذا الاتفاق » .

وكتب إليها يقول في ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ :
 « إن مواطني يكرهون اليوم فرنسا ، أكثر من إنكلترا
 نفسها إنك لا تدريين مبلغ تشامخ الإنجليز في الوقت
 الحاضر فإنهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين
 اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق أن يسخروا » .

وكتب إليها يقول في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٦ :
 « إني أكون مجرداً من الشعور إذا اعتقدت لحظة أن فرنسا
 تصبح صديقة مصر والإسلام » .

فليست صداقة مصطفى كامل لإحدى الدول ، هي فناء
 في هذه الدولة ، ولا تسليماً بأخطائها ، ودفاعاً عن سقطاتها ، ولا
 سيراً في ركابها ، إنما هي توجيه لسياستها وانتفاع بمركزها ،
 وبخلافاتها وحروبها مع إنكلترا ، ولذلك فإن رسم سياسة الدعاية
 كان عملاً شاقاً ، يحتاج إلى فهم عميق متجدد لبواعث السياسة ،
 وخوافها الظاهرة والخفية وكان يحتاج فوق ذلك كله إلى خبرة في
 استحثاث الساسة والمفكرين ، وتمكين كبريائهم وتبصيرهم
 بالأضرار التي تعود عليهم وعلى بلادهم ، فيما لو أهملوا مصلحة
 مصر ، وتجنبوها أو ضحوا بها . وفي السطور التي نقلتها لك من
 خطابات مصطفى كامل إلى مدام جوليت ترى إحاطته بالسياسة
 العالمية ، لا بالسياسة الأوروبية وحدها .

١١١

وليس أدل على انتفاع مصطفى كامل بالخلافات الدولية في
تحضير دعايته من الفقرة التالية من خطاب مؤرخ ٢٨ مارس
سنة ١٨٩٧ عند زيارة له في النمسا :
« رأيت القوم في النمسا ابتدأوا يدركون أن الإنجليز كانوا
يستغفلونهم زمناً طويلاً . . . ! »

أخى المواطن :

من بلايا الاحتلال على الأمم ، أنه يطمس معالم تاريخها في نفوس أبنائها ، فلا يعودون يعرفون ما إذا كانوا في ماضيهم القريب أو البعيد ، ثم يصيبهم بالتراخي والتخاذل فلا ينهضون إلى تعرف حقائق هذا التاريخ ، وبذلك يصبحون فرائس سهلة هينة للأكاذيب التي يشيعها الاحتلال ، فيأخذونها مأخذ الصدق ، ويتداولونها تداول الوقائع التي لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها .

ومن بين ما حارب به الاحتلال مصطفى كامل ، الفرية التي رسخت في أذهان البعض وهي أن مصطفى كامل لم يكن يريد الاستقلال في ذاته لمصر ، وإنما كان يريد الاستقلال فقط عن إنجلترا ، لا لتحرر ، وتنطلق إرادتها ، وتتساوى غيرها من الأمم والدول التي استقلت ، بل لتكون تبعاً لتركيا ، فتبسط عليها حماية الخليفة التركي ، وتصبح إيالة من إيالاته .
والذين يقولون هذا القول أقوام ينطبق عليهم ، ما قدمته

لك من أن أبناء الأمم المحتلة ، يتقبلون الأكاذيب ويتجرعونها كأنها شراب سائغ ويحبونها لأنها أيسر من الحقائق المغطاة التي يحتاج الكشف عنها إلى مجهود ومشقة ، فهم بلا جدال جهال كسالى ، لم تمتد أيديهم أبداً إلى تاريخ مصطفى كامل ، ولم يقرأوا حرفاً واحداً من مقالاته أو خطبه ، وأحاديثه ورسائله ، أو مذكراته وكتبه ، أو شروحه المستفيضة ، ودروسه العديدة . وهم يجهلون الأحداث الدولية التي أحاطت بالاحتلال البريطاني ، في سنة ١٨٨٢ ؛ ومن الخير أن ننفض هنا غبار النسيان عن عقول إخواننا .

وقع الاحتلال البريطاني ، وعلاقة مصر بتركيا ، محكومة بقرمانين (أى مرسومين عاليين) أحدهما صدر في سنة ١٨٤٠ أى في آخريات عهد محمد على والثانى صدر في عهد الخديو إسماعيل ، وخلاصة هذين القرمانين أن والى مصر كانت تعينه حكومة إستانبول من أكبر أفراد أسرة محمد على ، ثم عدل ذلك فأصبحت ولاية العهد لأكثر أولاد الوالى أو الخديو ، وقد كانت سلطة الخديو فى الترقية فى الجيش لا تتجاوز رتبة الأميرالاي ، أما ما يعلو هذه الرتبة فيصلر الأمر به من سلطان تركيا .

وبذلك كانت مصر فى الظاهر فى حكم الولاية بالنسبة

لتركيا ، ولكنها في الواقع كانت دولة مستقلة وإن لم يكن استقلالها ثابتاً بوثيقة ، ولكنه كان استقلالاً في الواقع ، بسبب تزايد قوة مصر ، وتناقص قوة تركيا ، أو تزايد ضعفها .

ولما أرادت بريطانيا ، أن تحتل مصر ، كان مما يجرها دولياً ، أن مصر تابعة رسمياً لتركيا ، ولذلك كان من الواجب ، أن تحتاط في كل ما تفعل ، حتى لا يكون في تصرفها في مصر ، مساساً بحقوق تركيا ، لأن ذلك كان يمكن أن يؤدي إلى نزاع دولي ، وقد يؤدي إلى نشوب حرب ، لو أرادت إحدى الدول الكبرى المنافسة لبريطانيا أن تستغل هذا النزاع ، وأن تثير بسببه قتالاً .

ومن يقرأ ما كان يحدث في إستانبول ، قبيل احتلال الإنجليز لمصر ، يرى كيف كانت بريطانيا تسير ، بسبب تبعية مصر لتركيا ، على ما يشبه الحبل ، كما يسير البهلوان البارح . كان على بريطانيا أن تطمئن الدول أنها لا تريد الانفراد بالعمل في مصر ، وأنها لا تبغى الاستئثار بها ، وأنها لا تفكر في المساس بسلطة تركيا عليها ، ولذلك ما كادت الأساطيل البريطانية تصل إلى مياه الإسكندرية حتى أسرع اللورد جرانفل وزير خارجية بريطانيا إلى أخطار الدول بأن « الحكومة البريطانية لم تفكر قط في أن تنزل إلى البر جنوداً ولا أن تحتل

البلاد احتلالاً عسكرياً . وفي عزم حكومة جلالة الملكة ، متى أعيدت السكينة إلى مصر ، وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها ، وتسحب سفنها الحربية ؛ فإذا وقع عكس ما نرجو ، بأن تعذر حل المسألة حلا سليما ، فإنها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رآته والحكومة الفرنسية أنجح الوسائل .

ولكن حكومة فرنسا استرابت مع ذلك في نوايا إنجلترا ، ورأت أنها تود الانفراد بالعمل ، فدعت إلى مؤتمر يعقد في إستانبول عاصمة تركيا ، بوصفها صاحبة الولاية على مصر . ولبت بريطانيا الدعوة إلى المؤتمر ، ورحبت في الحال بفكرته ، بل تظاهرت بالحماسة لها ، ودعت الدول إلى مناصرتها ، لأنها كانت تعلم أن المؤتمر إذا عقد فسيضم دولا بلا إرادة ولا سياسة مرسومة ، ومن هنا يصلح غطاء لها ولنواياها ، وجسراً تصل عليه إلى أغراضها وأطماعها ، فلذلك لم تر أن تجهر برفض الفكرة ، بل قبلتها وعملت على عرقلة المؤتمر سرا . ومن ثم اقترحت على فرنسا أن تطلب من سلطان تركيا إرسال جنوده إلى مصر ، لحفظ النظام . وكانت بريطانيا تهدف من هذا الاقتراح أن تقبل فرنسا هذه الفكرة فتندم الحاجة إلى مؤتمر ، ما دامت تركيا صاحبة السيادة قد أخذت الأمر على عاتقها ، واستعدت لحفظ النظام في مصر ، ولكن المؤتمر انعقد في ٢٣ يونية ، أي قبل ضرب

الإسكندرية في ١١ يولية بسبعة عشر يوماً .

وقد رفضت تركيا أن تشترك في هذا المؤتمر ، فعقد في السفارة الإيطالية ، وفي جلسته الثانية التي انعقدت في ٢٥ يونية وقع ميثاق التראהة ، ووقعته بريطانيا كغيرها من أعضائه ، وقد جرى نصه كالآتي :

« تتعهد الحكومات التي يمثلها الموقعون على هذا أنها في كل تسوية يقتضيها العمل المشترك لتنظيم شؤون مصر لا تسعى إلى امتلاك شيء من أراضيها ولا إلى أى إذن بأى امتياز خاص ولا إلى أى فائدة تجارية لرعاياها إلا ما كان عاماً يمكن أن تناله أية أمة أخرى » .

وفي هذه الأثناء حاولت تركيا أن تصرف الدول عن استمرار انعقاد المؤتمر بحجة أن الحالة في مصر قد هدأت ، وأن وزارة راغب باشا قد ألقت بعد أن بقيت مصر أياماً بلا وزارة .

ومالت إيطاليا إلى هذا الرأي ، لأنها كانت متأثرة بألمانيا والنمسا اللتين كانتا تعملان ضد فرنسا وإنجلترا . أما روسيا فقد قال وزير خارجيتها المسيو دى جيير : إذا اقتضت الضرورة التدخل ، لعدم كفاية التأثير الأدبي في حل الأزمة المصرية ، فتركيا أحق الدول بإعادة المياه إلى مجاريها في مصر ، فإن أبت تركيا ، فقد يعهد بالأمر إلى إنجلترا وفرنسا على شريطة أن يرافق

جيوشهما مندوبون من قبل جميع الدول الأخرى .
وكانت إنجلترا طوال هذا الوقت وبعده ، تصف الحالة
في مصر ، بصورة تشعر بأن الثورة فيها ليست وطنية ، إنما هي
حركة تعصب ديني أحق ، وأن الأجانب يقتلون وتعرض أرواحهم
وأموالهم للأذى ، ليتيسر لها الانفراد بالعمل في مصر .

ولذلك تضايق اللورد دوفرين مندوب إنجلترا في المؤتمر حينما
اقترحت إيطاليا اقتراحاً نصه : « ينبغي أن يكون معلوماً أنه ليس
لأية دولة أن تقوم بعمل انفرادي في مصر ما دام المؤتمر منعقداً » .
وما زال اللورد دوفرين بالمؤتمر حتى أضاف إلى هذا الاقتراح عبارة
« ما لم تقتض الظروف القاهرة غير ذلك » .

وأخذت إنجلترا تذكر فروضاً مختلفة للظروف القاهرة التي
تسمح بالتدخل الفردي ، حتى أحست الدول الأخرى بأن
إنجلترا تنوى هذا التدخل الفردي ، فقرر المؤتمر أن هذا التدخل
يجوز لتركيا وحدها .

في ظل هذه الظروف الدولية وقع الاحتلال البريطاني ،
ومن بيان هذه الظروف يتضح ما كان للور تركيا من الأهمية
الدولية ، وكم كانت الفرص متاحة لها لأن تمنع الاحتلال ،
وأن تسد الباب في وجه المطامع ، ولكنها لم تفعل ، وكان على
مصطفى كامل ، وقد آلت إليه هذه التركة المثقلة من أعباء

الماضى ، وتقصير السلف ، أن يبنى سياسته على حقائق حياة أمته ، وحقائق السياسة الدولية.

لم تستطع بريطانيا حينما احتلت مصر ، أن تعلن أنها تتخذ إجراء دائماً ، لأنها أقدمت على ذلك الاحتلال ، وهى تشعر أنها خانت العهد الذى قطعته على نفسها فى مؤتمر النزاهة ، وأنها غدرت بالدول التى اشتركت فى هذا المؤتمر ، ولذلك أعلنت على لسان وزير خارجيتها ، ومندوبها اللورد دوفرين ، أن الاحتلال إجراء مؤقت. وكان من أكبر الأمور ضغطاً على بريطانيا من الناحية الدولية ، تبعية مصر فى ذلك الحين لتركيا. ولم تكن بريطانيا تود أن تنكر لتركيا أو تدخل معها فى حرب ، ولذلك لم تتحد هذه التبعية ، ولم تعمل شيئاً من الناحية الرسمية أو من الناحية الدولية يخالف مقتضاها ، أو يمسها أساساً جوهرياً ، وبذلك كان مركز بريطانيا فى مصر قوياً غاية القوة من الناحية الفعلية ، لأنه مستند على جيش احتلال قوى ، فى أمة جرد أبنائها من السلاح وسرح جيشها ، وأغلقت أبواب مصانعها الحربية ، ولكن مركز بريطانيا فى مصر ، كان فى الوقت نفسه ، غاية فى الضعف ، من الناحية الشرعية الدولية ، لا لأنها اغتصبت مصر اغتصاباً ، فالقانون الدولى يعرف ألواناً من الاغتصاب ويقرها : يعرف الحماية ، ويعرف تبعية

المستعمرات للدول المستعمرة ، ويعرف الإلحاق ، ولكن بريطانيا لم تستطع أن تسمى وجودها المادى فى مصر ، بشىء من هذا .
 لم تستطع أن تسمى وجودها حماية ، لأن هذه الحماية تتعارض مع حقوق تركيا الرسمية التى لا قيمة لها من الناحية الفعلية ، ولكنها كانت مع ذلك باقية على الورق ومعتزلاً بها بين الأمم ، ولم تستطع أن تسمى مصر مستعمرة لأن ذلك أمعن فى إنكار سيادة تركيا الوهمية الرسمية .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك فإن اللورد لويد فى ص ١٩٢ من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » يقول وهو يتحدث عن إعلان إنجلترا الحرب على تركيا فى الحرب العالمية الأولى التى وقعت فى أغسطس سنة ١٩١٤ :

« كان يجب مواجهة أخطر وأصعب مشكلة فى وقت قريب وتلك هى مشكلة تحديد مركز مصر ، حينما تعلن الحرب ضد تركيا .
 « وقد يكون من المفيد أن نذكر باختصار الحقائق العامة الرئيسية ، فيما يتعلق بمركزنا فى مصر ، كما كان فعلاً فى تلك الآونة .

« لقد كان مركزنا غاية فى القوة من الناحية العملية ، وغاية فى الضعف من الناحية الشرعية . »

فمن الناحية الفعلية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش
البريطاني ، وهذا الجيش تعزز في فترة الحرب بالقوات
الإمبراطورية المختلفة ، التي كانت لازمة لمواجهة خطر
غزو مصر من الخارج .

وفي فترة الحرب زاد نفوذنا الفعلي زيادته الهائلة بسيطرتنا
على البحار التي كانت تعين على عزل مصر عن الخارج
تماماً إذا أردنا . هذه الحقائق جعلت من حقنا أن نسمع
رأينا في توجيه الأمور في مصر ، فقد استمد موظفونا
وممثلونا من وجود الاحتلال البريطاني سيادة كافية .
أما مركزنا من الناحية الشرعية فكان مناقضاً تماماً لهذا
المركز العملي القوي ، فمن الناحية الدستورية كان الحاكم
لمصر هو الخديو ، وكان مجلس الوزراء هو ناصحه
ومستشاره ، ولم يكن لقنصل بريطانيا وجود دستوري أو
حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين
البلدين ، مصر وإنجلترا ، ولم يكن الموظفون البريطانيون
بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرعوسين
وتوابع للخديو . ولم يكن من قيد شرعي على سلطة
الخديو ، سوى قيد واحد معترف به دولياً ، ذلك هو
" قيادة العليا لسلطان تركيا ، فصر من الناحية القانونية

الفنية كانت ولاية عثمانية وكان الحديو يتلقى الملك بأمر من السلطان الذى يعترف هو لعظمته .

فأى سياسى يجد هذه الناحية الضعيفة فى الاحتلال البريطانى ، أو هذه الثغرة المكشوفة ، ولا ينفذ فيها إلى مقتل فيه . لا يعنى عنها إلا أبله . ولم يكن مصطفى كامل هذا الأبله . بل كان سياسياً حاذقاً غاية الحذق ، بارعاً غاية البراعة . ولذلك أحسن استعمال هذه الورقة الهامة ، فى حلبة السياسة الدولية . وكان يخرج بريطانيا بها ، فى خطبه وفى أحاديثه ولم تكن بريطانيا تستطيع أن تنكر أن وجودها غير شرعى وكانت أقصى ما تملكه هو أن تقول إنها ستجلبو حالا .

ومن هنا تعددت وعود بريطانيا بالخلاء فبلغت أكثر من ٦٥ وعداً ، وقاربت أن تكون سبعين وعداً ، خلال سبعين عاماً أى بواقع وعد فى العام الواحد .

فالذين يزعمون أن مصطفى كان يدعو لتبعية مصر لتركيا ، هم كما قلت جاهلون ، وكاذبون .

جاهلون بهذا التاريخ الذى بسطت لك طرفاً منه ، وكاذبون لأن مصطفى كامل . قال وفعل ، عكس هذا الذى يفترون به عليه .

خذ مثلاً ما جاء فى خطاب مبكر أرسله إلى مدام جوليت

آدم في ١٢ يولية سنة ١٨٩٧ وهو في مطلع حياته السياسية :
 « إنك تعلمين خطتي نحو تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ،
 فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي ، وقد اعترف كثير من
 أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الوطنية لمصر ، أن نكون مع
 تركيا ، بما أن الإنجليز محتلون وطننا العزيز » .

فانظر أولاً : ما دام الإنجليز محتلون وطننا العزيز ، وانظر
 أيضاً : أن نكون مع تركيا .

فالأولى تدل على أن سياسته مؤقتة ، ومعلقة على وجود
 الإنجليز في مصر ، فهي لا تمتد إلى ما بعد جلائهم عنها .
 والثانية تدل على أن كل ما عمله مصر ، هي أن تكون
 مع تركيا في معسكر واحد ، وهو ما يقع بين الدول المستقلة ،
 وهذا ما قاله مصطفى كامل تقريباً بالحرف الواحد في خطبته
 التي ألقاها في الإسكندرية في يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ أي
 قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر .

رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر
 لنقدمها لتركيا كولاية عادية ، أي أننا نريد تغيير الحاكمين
 لا طلب الاستقلال والحكم الذاتي .

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التي نقلت
 إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكاً بالعبودية ...

فهذه التهمة هي مسبة للمدنية والمتمدنين .
 « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك
 الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أم الأرض كلها ،
 وأنها إذا أخلصنا الود لأمة أولدولة فإننا نعمل كغيرنا فنتبع
 ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون
 ويتناصرون، وإذا كانت إنجلترا تسعى للتقرب من الدولة العلية
 — تركيا — وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً ، فمن الذى يلوم
 المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً وأن
 يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا » .

فماذا يقول الكسالى الجاهلون وقد وضعنا تحت نظرهم هذين
 النصين اللذين يحددان حياة مصطفى كامل السياسية ، أحدهما
 صدر منه وهو فى السن المبكرة لهذه الحياة القصيرة ، وثانيهما
 كان ختاماً لهذه الحياة ؟ ؟

أخى المواطن :

ماذا كان يحدث لو لم يهاجر فريد من مصر إلى تركيا في ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ ؟ هذا سؤال ضخم ، لم يعرضه أحد من المؤرخين على بساط البحث ، لأن افتراضه عبث لا طائل تحته ، والحق أنه عبث ، لأن فريداً لم يهاجر فعلاً . فتصور عدم هجرته أمر أدخل في نطاق الأدب ، منه في نطاق العلم والتاريخ المحقق .

ولكن افتراض هذا الفرض ، مع ذلك يفيد المؤرخ ، لأنه يعينه على دراسة تاريخ الحقبة الواقعة بعد سنة ١٩١٢ في ضوء أكبر ، إن هذا السؤال يأخذ بيد الباحثين إلى تحديد أكثر كمالاً وعدلاً ، للور محمد فريد في تاريخ مصر .

لقد درجت على القول بأن مصطفى كامل في تاريخ مصر الوطني والسياسي الحديث هو كالسور القصار في القرآن ، وفي تاريخ الإسلام . أما محمد فريد ، فكالسور الطوال في كتاب الله العزيز ، وتزيدني الأيام اقتناعاً بهذا التشبيه .

فمصطفى كامل ، كان كالشهاب الخاطف ، قصير العمر !
 بدأ كفاحه الوطنى شاباً ، ومات فى ريعان الشباب ، وكان دوره
 الدعوة ، فى شمول معناها ، وفى مستوياتها العامة المطلقة . كان
 أذناً ، وتبشيراً ، وإيقاظاً ، وإهابة . كان كلامه حاراً ، له طابع
 الشعر ، وفيه وزن الموسيقى وجمال إيقاعها .

فلما لحق بالرفيق الأعلى ، وآلت الزعامة إلى محمد فريد
 لم تعد الأمة فى حاجة إلى من يدعوها ، فقد استجابت لدعوة
 مصطفى كامل ، وعبرت عن هذه الاستجابة مراراً ، استجابت
 له حينما نفذ حكم دنشواى ، واستجابت له حينما خرجت تشيع
 جثمانه هو ، فى جموع لم يشهد التاريخ المصرى الحديث مثل
 احتشادها لحادث سياسى من قبل : إذن وقفت الأمة على
 قدميها ، ووقفت أمام الاحتلال وجهاً لوجه ، فلم يعد للاحتلال
 مفر من أن يختار أحد أمرين : إما أن يفسح لها الطريق ،
 لتغلبه على أمره ، وتقذف به من سماء قوته وإما أن يخنقها ،
 ويكتم أنفاسها .

وقد تريت الاحتلال فى البطش الساخر بالحركة الوطنية ،
 لأن تقليد الاحتلال البريطانى فى كل مكان هو أن يضبط نفسه
 ما دام الأمر مقدوراً عليه ، بغير العنف . فإن أنس من جانب
 الوطنية قوة ، تجاوز هو كل حد ، ولجأ إلى كل سلاح ،

وبطش بكل فضيلة ، وداس كل قانون . فما يبدو على أسلوب الاحتلال البريطاني من ميل إلى المسالمة ، وأخذ للمسائل برفق ، وعلاج للمشاكل بهدوء مرده أن حظ بريطانيا ساقها إلى أم كانت الكوارث والمصائب قد خشت رجالها وأفقدتهم الميل إلى النضال ، فإذا استعادت هذه الأمم غريزة القتال وقاومت ، نزل بها العذاب ألواناً .

ولم يترك مصطفى كامل مصر ، إلا بعد أن عاد إليها حب القتال ، واستيقظت فيها غريزة النضال ، فكان على محمد فريد أن يقودها في هذه المعركة الشاقة المرهقة فكان كفتاً لهذه المهمة ، بل لعله تعجل المعركة قليلاً ، قبل أوانها ، تحرقاً لمنازله الأعداء .

لقد خرجت الحركة الوطنية ، من حجرات دار اللواء حيث كانت المقالات الوطنية تكتب إلى مجال الشعب العام . إلى الشوارع . . .

وقد بدأ هذا التدرج بسيطاً ، ولكنه وصل إلى غايته سريعاً ، وكانت البداية في ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، يوم احتفال الجيش البريطاني في مصر ، بعيد الإمبراطورية ، فقد هتف طلبة مدرسة الحقوق المجاورة لميدان عابدين ، مكان العرض العسكري المقام لهذه المناسبة .

هتف الشعب ، ما أغرب ذلك وما أعجب !

فإن هذا الشعب كان دوره مقصوراً على أن يقرأ المقالات ويسمع الخطب ، ولم يكن يصدر عنه شيء ، فما الذى أنطقه ، ثم ما الذى جعل أول ما نطق به تحدياً لجيش الاحتلال نفسه ، وفى يوم الاحتفال بعيد الإمبراطورية ؟ ؟

كانت الحركة الوطنية ، قد جاشت ، ووصلت إلى حافة الانفعال فى يوم وفاة مصطفى كامل ، وكان تدفق جموعها إيداناً بأن الاتفعال الداخلى أصبح تعبيراً خارجياً . .

ولكن هذا التعبير الخارجى الذى بدأ بالهتاف يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٨ استحال فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ ، إلى صدام مع قوة الاحتلال ممثلة فى البوليس المصرى الذى كان يرأسه ويشرف عليه ويديره حكامار بريطانى .

وقع الصدام من أجل الأداة التى تعبر بها الحركة عن نفسها ، أعنى الصحافة .

ذلك لأن وزارة بطرس غالى التى ضمت سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد ، أصدرت فى ٢٥ مارس قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الذى أصدرته حكومة الثورة العراقية لاعتبارات الثورة القائمة وقتذاك ، فانعقدت لجنة الحزب الوطنى الإدارية برئاسة محمد فريد ، واستنكرت إعادة العمل بهذا القانون .

واستجاب الشعب فوراً لهذا التوجيه فاجتمع في حديقة الجزيرة آلاف من طلبة المدارس العليا والتجار والعمال وساروا في مظاهرة حافلة حتى ميدان الأوبرا . . .

وفي يوم الأربعاء ٣١ مارس تجددت المظاهرات وخرج من صفوف المتظاهرين خطباء الشعب ، هؤلاء الخطباء الذين يعرفون كيف يلهبون الجموع بعباراتهم الحماسية التي ينتقونها ، وهم معلقون على أفرع الأشجار أو محمولون على أعناق الزملاء . وجد الشباب إذن أدواته للتعبير ، كما وجد من قبل أهل البيوت وأصحاب المكاتب ، وسيلتهم لهذا التعبير ، وهي الصحيفة . وأحاديث المنتديات .

ولكن كيف حدث هذا التطور ؟

حدث لأن محمد فريد اتجه إلى الشعب ، وقد ربط نفسه بهذا المحيط الفسيح حينما جعل أساس سياسته هو مواجهة مشاكل الشعب ، ومحاولة حلها .

فأنشأ مدارس الشعب ، وأنشئت أول مدرسة من هذا النوع في حي بولاق ، والتي أول درس فيها المرحوم الأستاذ أحمد لطفى ، في موضوع (شئون اجتماعية) ! وإني لأرجو أن تقف أمام هذا الموضوع ، وأن تتأمل عنوانه ، لأنه ذو دلالة كبرى ، فإن الحديث في الشؤون الاجتماعية ، الذي هو طابع أيامنا هذه

كان أمراً نادر الوقوع في أيام محمد فريد .

والتأمل في برنامج هذه المدارس ، يزيد الإنسان فهماً لعقلية محمد فريد ، والحزب الوطني في هذه الحقبة ، فقد كان البرنامج يتناول الشؤون الاجتماعية ، وقانون الصحة ، والصحة الوقائية ، ورعاية الطفولة ، والقوانين المتصلة بالحياة اليومية ، وتاريخ مصر ، والتاريخ الإسلامى .

فمدارس الشعب من ذلك التاريخ المتقدم حاولت أن تنشر الثقافة السياسية والثقافة الاجتماعية بين أفراد الشعب ، لتأهيلهم لفهم قضايا الوطنية ، ولقيادة الحركات الشعبية عن فهم وإدراك وبصيرة .

وكان طبعياً أن يلتفت محمد فريد ، وهو صاحب هذه التزعزعات الاجتماعية الأصيلة إلى الجناحين اللذين يخلق بهما كل حركة شعبية في العالم ، وهما الفلاحون والعمال ، فأحس بحرمان العمال من كافة الضمانات والحمايات التى كان العمال في غير مصر قد ظفروا بها . فكتب في جريدة الديلى نيوز مقالاً قال فيه في يولية سنة ١٩٠٨ :

« إلى الآن لا توجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ، ولا قوانين تحدد سنهم ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها في العمل ، فتجد العمال مثقل الكواهل بلا رحمة خصوصاً في

معامل الدخان ومعامل حلب القطن حيث يشتغل العمال الأطفال ذكوراً وإناثاً في وسط من أردأ الأوساط من الوجهة الصحية والأدبية . »

ولكى تستطيع أن تعرف مقدار تقدم عقل محمد فريد ، وسبقه لمعاصريه ، أقول لك إنى أستطيع أن اتحدى بهدوء واطمئنان أن كلمة كهذه عن العمال ، لم ترد على لسان أى زعيم حزب سياسى آخر من الأحزاب التقليدية بعد محمد فريد حتى كان ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ - فالحديث عن العمال ، وعن تشريعاتهم والمطالبة بضمانات لمستقبلهم ، ولتحسين الحالة التى يعملون فى ظلها ، أمر كان غريباً غاية الغرابة ، عن العقلية السياسية المصرية ، وقد طبعت جميع محاولات محمد فريد وجهوده السياسية بهذا الطابع الشعبى .

فهو لم يرد مثلاً أن تكون المطالبة بالدستور ، عملاً يقوم به الخاصة ، فطبع عشرات الألوف من العرائض تتضمن كلها المطالبة بالدستور ، ووزعها أعضاء الحزب الوطنى ، على الشعب ليوقعوها ، ويؤيدوها ، فنشرت حملة العرائض هذه الفكرة الدستورية ، فى أوسع نطاق ، فوجهت الشعور العام هذا الاتجاه ، وزادت من إحساس السلطات عموماً مصرية ، وأجنبية ، بضغط الشعب .

لم يكن ممكناً، وفريد هذا أسلوبه وطابعه ، أن يبقى على أية علاقة بالخدّيو .

صحيح أن العلاقات بين مصطفى كامل والخدّيو ، كانت قد فترت بينهما قبل وفاة مصطفى كامل ، ولكنها لم تنقطع أبداً . ولما آلت الزعامة إلى فريد ، حاول الخدّيو أن يتلطف لفريد وأن يكسبه لصفه ، وقد قبل هذا التلطف محمد فريد أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس أن هذا التلطف من قبيل المصافحة الرسمية التي تتم بين المتلاكمين ، في حلبة الملاكمة . فاستعد لها محمد فريد ، وكال للخدّيو كما كال للإنجليز لكلمات مصيبة شديدة .

إنه لم يدع للخدّيو أبداً فرصة الانحراف عن طريق الوطنية المستقيم ، حينما أراد الإنجليز أن يعدلوا عن سياسة الشدة معه ، ليبدأوا سياسة التخدير والإغراء التي عرفت بسياسة الوفاق ، بعد أن عزل اللورد كرومر وحل محله السير المون جورست ، كان محمد فريد يصلي الخدّيو شواظاً من نار كلما رأى هذا الانحراف .

وقد كان من حملاته على الخدّيو والإنجليز مقالا افتتاحياً نشره في جريدة « الشعب » :

« لما بدأ السير جورست سياسته الجديدة الموسومة بسياسة

الوفاق كنت في مقدمة من حذر الأمة منها في أول خطبة عامة ألقيتها في تياتروالشيخ سلامة حجازي في ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨ فأبنت ما يعود على الأمة من مضار بسبب اتفاق صاحب السلطة الشرعية مع المحتلين . »

وقد فقد صبر الخديو من ضغط محمد فريد المتجدد فرماه وبقية أنصاره من أبناء الحزب الوطني بالتسرع ، فلم يسكت محمد فريد على هذا الهجوم ، فرد عليه قائلاً :

« لا أدرى ما الذي حمل سمو الأمير على اعتبارنا متسرعين وملحفين في طلب الدستور مع أن مبادئنا لم تتغير من سنة ١٩٠٧ إلى الآن ، بل ما زالت هي هي تلك المبادئ التي أساسها طلب الجلاء وطلب الدستور ، والتي تم عليها الاتفاق في حياة المرحومين لطيف باشا سليم ومصطفى باشا كامل في ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٦ قبل أن يعلنها المرحوم مصطفى باشا كامل في خطبته بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ؟ »

وقد أفضى ذلك كله إلى النتيجة الحتمية ، أن يكون محمد فريد هدفاً لاضطهاد الإنجليز والحكومة المصرية ، وهذا ما دعاه إلى الهجرة إلى تركيا في ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ . فهل أخطأ ، أو أصاب ؟ وماذا كان يحدث لو أنه بقي في مصر حتى أعلنت الحرب العالمية في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

أما هجرته في ذلك الحين ، أى في التاريخ الذى وقعت فيه . فلم يكن عليها غبار ، لأن محمد فريد ، وهو طليق ، بعد أن ارتبطت أسيابه ، بالمجال الدولى ، وأصبح معروف الاسم لدى المحافل الكبرى ، كان يستطيع أن يخدم قضية مصر ، وهو خارج مصر ، أكثر من الخدمة التى كان يؤديها لها ، وهو داخلها ، وسيف الرقابة والاضطهاد والسجن معلق فوق رقبتة . ولا شك أنه حينما سافر إلى تركيا ، لم يكن يتوقع أن الحرب الكبرى ستعلن بعد هجرته إليها ، بستين وبضعة أشهر . ولو تكشف له حجب الغيب ، لفكر طويلاً في مشروع الهجرة الذى عزم عليه ثم نقذه .

ولكننا مع ذلك نرى أن وجود الزعيم على رأس الحركة التى يقودها ، واتصاله المباشر ، بضباطها وجنودها ، يزيد لها قوة ، وكل اضطهاد يصيبه ، يرفع من قدره ، ويزيد من نفوذه ، فالهجرة لا تجوز إلا حين يثبت أن الخطر متجاوز حرية الزعيم إلى حياته ، فهنا تجب الهجرة ، لأنها تنقذ الحركة جميعاً ، وتبقى عليها ، وتضمن لها الحياة . وقد لا يكون من المصادفة البحتة أن يهاجر الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد ، في الوقت الذى يبلغ الاثمار بهم إلى حد التفكير في اغتيالهم ، وحينما لا يكون ثم سبيل للنجاة غير الفرار . ولست أشك في أن محمد فريد ، إذا

فترة الحرب ، في الاعتقال ، ولكنه كان سيبقى الزعيم المدخر للحركة الوطنية طوال هذه الفترة . ولكن استمرار اعتقاله بعد أن تضع الحرب أوزارها ضرباً من المجازفة لم تكن بريطانيا تقدم عليه ولم يكن الشعب في حاجة إلى أن يبحث له عن زعيم في سنة ١٩١٨ ، بل كان زعيمه المعترف له بالسبق ، والفضل والقدرة هو محمد فريد غير منازع . ولما قامت إلى جوار زعامته ، زعامة أخرى تنافسها ولكانت زعامة مهيأة فعلاً للقيام بتبعاتها ، تعرف مبادئها وتعرف أساليبها ، وتعرف ماذا تريد .

ولم تكن مصر لتضيق الوقت الذي ضيعته في الخلافات التي نشبت بين أبناء المدرسة المعتدلة الذين كانوا لا يرون خيراً من التعاون مع الإنجليز ، في ذلك الحين ، مما جعل الخلاف بينهم مقصوداً على مدى هذا التعاون ودرجته ، والإسم الذي يسمى به في الوثائق والمستندات .

ولا شك أن محمد فريد ، كان يتجه بالحركة الوطنية الاتجاه الذي تأخر ربع قرن من الزمان ، اتجاه الشعب الصريح وإفساح المكان اللائق للفلاحين والعمال وأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، فإن رجلاً يقول في ٧ يناير سنة ١٩١٠ :
« العمال في بلادنا مهملون كالفلاح فلا قانون يلزم المفاوض

بقى في مصر ، حتى إعلان الحرب العالمية ، فإنه كان يقضى بدفع تعويض لمن يموت شهيد عمله أو يفقد أحد أعضائه فيصبح عديم الكسب ، ومن الأمثال العامة أن الفاعل (دينه أجرته) ولا الحكومة تفكر في الدفاع عنه فهي لا تشغل كما قلنا إلا بدفع فوائد الديون للدائنين الأجانب ، أو هي شبه شركة لاستغلال وادي النيل .

» نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطئ رأسها أمامها وبفضل مجهودات هذه النقابات وضعت قوانين في إنجلترا وفرنسا وألمانيا تضمن لكل عامل في الصناعة أو الفلاحة معاشاً سنوياً متى يبلغ سنّاً معلومة .

» ولم يكن لديه ما يسد به الرمق ويمنعه من التكفف ولقد كان هذا القانون بإنجلترا هو الباعث على تغيير أساس ربط الضرائب .
إن من كان يقول هذا في سنة ١٩١٠ .. ماذا كان يقول في سنة ١٩١٨ ؟ وماذا كان يقول بعد ذلك ؟

إن محمد فريد ، لو عاش في مصر ، وامتد به العمر ، لكان زعيماً عالمياً ، بقى مصر ، وبقى الشرق العربي كله ، بل بقى الشرق الأوسط ، ما تورط فيه ، وما زال يعانيه من الحيرة بين المذاهب والمبادئ ، ولعرف هذا الشرق منه نفسه ، أو عاد إليها ، وبقى كما كان ، مصلحاً لمعرفة أصيلة ، ومنبعاً لحضارة منيعة .

دار المعارف بمصر

تقدم

• مجموعة نوابغ الفكر العربي

دراسات عميقة مميزة لأعلام الفكر والأدب العربي
تشتمل على عرض لعصر كل نابغة ، وترجمة لحياته ،
وبحث في مميزاته وآثاره ، ثم منتخبات من تلك الآثار .

صدر منها ثمن النسخة ١٢,٥ قرشاً

ابن رشد	إخوان الصفا	السهروردي
الجاحظ	بشار بن برد	الشيخ إبراهيم اليازجي
الشيخ نجيب الحداد	بديع الزمان الهمداني	المتنبي
محمود سامي الباروي	أبو الفرج الأصبهاني	البحري
ابن زيدون	ابن الرومي	
الشيخ ناصيف اليازجي	الفرزدق	

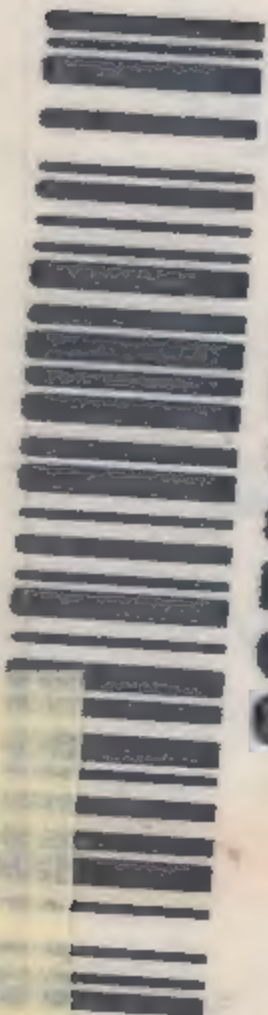
• مجموعة فنون الأدب العربي

دراسات مركزة للأدب العربي في كل فرع

صدر منها ثمن النسخة

الغزل (جزءان)	الفخر والحماسة	الرحلات
الرياء	المقامة	النقد
الوصف	التراجم والسير	الخطب
المديح	الترجمة الشخصية	الحكم

blibliotheca Alexandrina



0358076